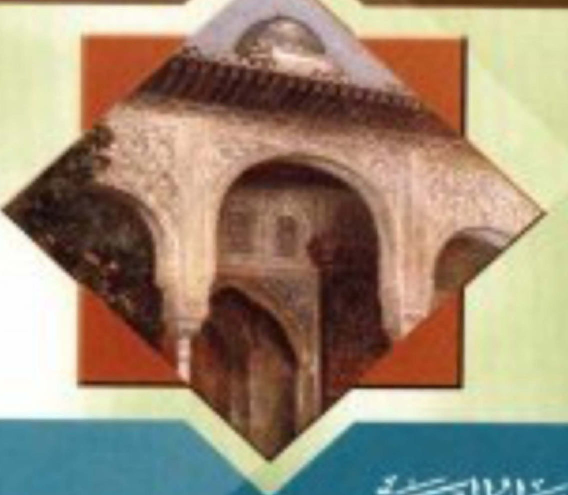
القدوات الكبار

بين التحطيم والانبهار

الدكتور
محمد موسى الشريف



دار التربية

دار التزكية

القدوات الكبار
بين
التحطيم والانبهار

الطبعة الثالثة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

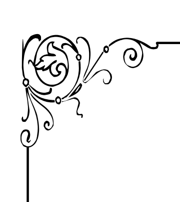
القدوات الكبار

بين

التحطيم والانبهار

الدكتور

محمد موسى الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾.



مقَدّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فهذه رسالة أُسَطِّرها بقلبي قبل قلمي، وبعقلي قبل لساني، أبيِّن فيها قضية مهمة طغت فيها أقلام، وزلت فيها ألسن، وماجت بها أفكار، وضَلّت معها أفهام، وانقسم الناس فيها بين مُفْرط ومفرِّط، وقَلّ فيها الاعتدال، وضاع التوسُّط، وانمحت آثاره، ودَرسَتْ معالمه، وخَفَتَ صوته فلم يَعُد مسموعاً، وعُقِل لسانه فلم يعد مبِيناً ولا مفهوماً، وكثرت كتابات الكاتبين، وتعالى صوت المنتصرين لآرائهم الجامحين، وقَلّ الخوف من الله تعالى رب العالمين، فكم وُلِغ في أعراض، وتُكُلِّم في أناس بُرآء، وهدم من الناس أركان مشيدة من حسن السمعة وجميل الطريقة، وادّعى المدَّعون اتباع طريقة الأسلاف، وهم منها جفاة أجلاف.

وفي الوقت نفسه سُطِّرت مآثر لقوم هم عنها ضالون، وادُّعي لهم من الفضائل ما لا يكون، فسبحان الله كيف صار الأمر دائراً بين الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط، وكأن القوم اتفقوا على عدم العدل، والتقت أفعالهم وأقوالهم على طريق وَعْر، ولقد حذّر من صنيعهم رب العزة والجلال، ورسوله ﷺ وأهل الفضل والكمال، وسترى أخي القارئ في ثنايا هذه الرسالة ما سيطول معه عجبك، وينفر منه عقلك وقلبك،

ويجلب لك الألم والحسرة على حال كثير من بني قومك، لكن لابد من معرفة المرض وأعراضه، والمشكلة وآفاتها، قبل أن يتسع الخرق على الراقع ـ وقد كاد وقارب ـ أو يصعب العلاج ويضعف المداوي، وتطيش موازين الهوى، ويعلو صوت الغالين، ويقود الجرح والتعديلَ كثير من الجفاة الحاقدين أو مَن لم تَسْلم لهم الأفهام ولا الموازين.

هذا وقد كنت كتبت قبل ذلك رسالة في سلوك الأدب وحضضت عليه، لكن الأمر الآن قد طغى وربا بحيث لم يعد في حدود الأدب وعدمه، بل جاز ذلك إلى حد ارتكاب المناهي الشرعية، وعدم الوقوف عند حدود الله تعالى المرعية، فهذا الذي خاف الصالحون أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا وإني لأرجو أن أكون ممن شارك في بيان هذا الأمر الخطير، ووضع بعض الحلول لمعالجة الواقع الفطير، في هذه الرسالة الموسومة بـ«**القدوات الكبار بين التحطيم والانبهار**» عسى الله تعالى أن يكتب لي أجرها، ويتجاوز بها عني عن كثير من السيئات، ويرفعني بها عالي الدرجات، ويلحقني بعباده الصالحين غير مبدل ولا مفتون، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلِّ اللهم على نبيك أبي القاسم صلاة ترفعه بها إلى المقام المحمود، وتجعله معها صاحب الحوض المورود وسلّم تسليماً كثيراً.

وكتب

محمد موسى الشريف

Email : mmalshareef@yahoo.com

Web site : www.altareek.com

تمهيد

فطر الله ـ تبارك وتعالى ـ الناس على مراتب ومواهب متنوعة، وأودع في بعضهم من القدرات والمزايا ما جعلهم بها قادة للآخرين وقدوات، فصنع الله تعالى بهم أحداث الزمان، وجعل كلامهم وفعالهم من التأثير بمكان، وعاش هؤلاء وهم للناس نجوم، وما ماتوا إلا وهم قادة قُرُوم[١]، وسادة للعلوم والفنون، فلله دَرُّهم، فكم بذلوا من أوقات، وأنفقوا من أموال، وقدّموا من جهود، وضحَّوا بآمالهم، وكتموا آلامهم، وجاهدوا إبليس وحزبه الملاعين، وصاروا من جند الله تعالى العاملين، وكسدت بضاعتهم في سوق الكلام لكنها والله راجت في ميدان الفعال، وارتفعوا على الصغائر والدنايا، وجاهدوا في ساحات المنايا، فكافأهم الله تعالى أعظم المكافأة، وجعلهم للناس قادات وسادة، فاقتفيت آثارهم، وسجلت أعمالهم، ولحظت حركاتهم، وسطرت تواريخهم، ورغب الناس في شمائلهم.

ولا ريب أن أعظم القدوات قاطبة هم الرسل العظام والأنبياء الكرام الذين نصبهم الله تعالى قدوات للناس، وهداة لهم، فمهما صنعوا فالناس بهم مقتدون ولهم متبعون، ولآثارهم وأعمالهم مقتفون، وقد بيَّن الله تعالى ذلك للناس أحسن البيان فقال جلّ من قائل:

(١) القُروم: جمع قَرم وهو السيد العظيم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[١]، وخصّ الحبيب المصطفى والنبي المجتبى ﷺ بقوله سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢].

فالرسل الكرام إذاً متبعون في كل أفعالهم وأقوالهم، وليس من الناس أحد يؤخذ كل كلامه وفعاله مأخذ التطبيق الكامل والاتباع التام إلا أولئك العظام عليهم أفضل الصلاة والسلام[٣]، أما مَن عداهم فيؤخذ من كلامه ويترك بقدر اقترابه أو ابتعاده عن سنّة رسله وأنبيائه.

ولقد مَنَّ الله تعالى على الأمة الإسلامية العظيمة الخيار الوسط بأعظم رسول ﷺ وقَفّى على أثره بجملة وافرة من القدوات العظام من الصحابة الكرام والتابعين ومَن تبعهم إلى يوم الناس هذا، لم يكن للأمم الأخرى عشر معشارهم ولا بعض أعمالهم وآثارهم، أنار الله تعالى بهم الدنيا، وقشع بهم الظلام، وجعلهم قدوة لجميع الأنام.

والمتصفح للتواريخ يعجب لهذه الكثرة الكاثرة من القدوات في هذه الأمة مقارنة بغيرها من الأمم، فما من صاحب علم ولا لغة ولا أدب ولا فن من الفنون إلا وسُطِّر له تاريخ ـ غالباً ـ علمه مَن علمه وجهله مَن جهله، وكتب الرجال طافحة بأخبارهم، شاملة في ذكر دقائق حياتهم وتفصيلات أعمالهم، فللمفسرين تواريخ وللمحدثين مثلها،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٢) سورة الأحزاب.

(٣) وهذا حق إلا في الأمور التي نهانا الله أو نهى نبيه ﷺ عن الاقتداء به كقوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مع قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾، ومثل بعض المواضع التي عوتب فيها بعض الرسل العظام عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وسمِّ مَن شئت من طبقات الفقهاء، والأدباء، واللغويين، والنحاة، والشعراء، والمؤرخين، والدعاة، والحكماء، وغيرهم كثير، كل أولئك قد سُطرت مآثرهم، وحُكيت أحوالهم، وبُيِّن زهدهم وشجاعتهم وجهادهم، كل ذلك في أسفار موسعة، وتفصيلات لم تكن لأي أمة من الأمم ولن تكون.

هذا وإنه لم ينقطع سيل أولئك القدوات في تاريخ الأمة الإسلامية، نعم إنهم كانوا جملة وافرة عظيمة في القرون الثلاثة الأولى المفضلة وذلك مصداقاً لقول نبينا الأعظم محمد ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[١]. لكن ذلك لا يمنع أن يكون سيلهم مستمرّاً وعطاؤهم متتابعاً منهمراً في القرون التي تلت تلك القرون الفاضلة إلى يوم الناس هذا، ولقد تركوا من الآثار، وعملوا من الأعمال ما خُلد في صفحات من الدهر، وبقي على مرّ الزمان مضيئاً مهيباً.

مراتب القدوات:

واعلم أخي القارئ وأختي القارئة أن القدوات في أمتنا ليسوا على مرتبة واحدة من العطاء والفضل؛ إذ كان منهم سادة نجباء من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومن بعدهم، وكان منهم مجددون كبار عادوا بالأمة إلى شيء من سالف مجدها وعظيم سيادتها، وذلك كما أخبر الصادق المصدوق بأبي هو وأمي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَن يجدد لها دينها»[٢].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الشهادات: باب لا يشهد على جور إذا أشهد، وفي باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، وفي غير ذلك من الأبواب.

(٢) أخرجه الإمام أبو داود في سننه: أول كتاب الملاحم بسنده عن أبي هريرة رضي الله =

وكان منهم مَن صار له أتباع، واجتمعت آراؤه لتصير مدرسة كاملة يتخرّج فيها عدد من القدوات، وكان منهم من هو دون ذلك، وإنما قلت هذا لئلا يحسب الناس أن القدوة هو فلان وفلان ومَن قصر حاله عن حالهم فليس بقدوة، لا فالفضل أوسع، ورحمة الله أعظم بكثير من هذا التضييق.

قدواتنا وقدوات الأمم الأخرى:

لا بد أن يعلم القارئ الكريم أن الأمم مجتمعة اليوم ليس لها من قدواتها ما يساوي عشر معشار قدواتنا كمًّاً وكيفاً، بل إن عشر المعشار - هو الواحد في المئة - رقم فيه الكثير من التجاوز لصالح أولئك، فأعظم قدوات اليهود والنصارى أنبياؤهم العظام[١]، وما يعرفونه عنهم لا يتجاوز شذرات قليلات متفرقات لا تليق بحالهم صلّى الله عليهم وسلم، ولاتسَلْ عمن بعدهم من قدوات، حيث قد ضاع أكثر أخبارهم، وفنيت معارفهم وعلومهم إلا قليلاً، والتفصيلات عن أحوالهم معدومة، وكثير منها كذب وتحريف.

والعجيب أنهم يمجدون اليوم رجالاً ونساءً لا يستحقون هذا التمجيد الطويل؛ إذ يقيمون لهم التماثيل، ويصورون أحوالهم للأجيال تصويراً مبالغاً فيه، ويرتفعون بهم فوق ما ينبغي لهم؛ فهذا نابليون رمز للفرنسيين وتاريخه وتاريخهم، ولو نُظر للرجل بعين الإنصاف لعلم أن

= تعالى عنه، باب ما يذكر في قرن المئة، وقال فيه الإمام السيوطي: اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح. انظر «عون المعبود»: ١١/٣٩٦.

(١) هكذا يفترض لكن الواقع ينطق بعكس ذلك تماماً حيث إن اليهود هم قتلة الأنبياء ومحرِّفو كتبهم، والنصارى ضلُّوا ضلالاً عظيماً وتركوا اتباع عيسى عليه الصلاة والسلام.

حاله لا يستحق كل هذه الحالة التعظيمية؛ فالرجل باختصار قاد بلاده للفوز في معارك وأخفق في أكثرها، وانتهى أمره إلى أن يموت منبوذاً منفيّاً، أما أخلاقه ومنهجه فيكفيه سوء صنيعه في مصر وفلسطين، وقتله آلاف الأسرى فيها[١]، هذا ولم يعرف للرجل علم ولا فن اختص به، فكيف صار حاله كذلك؟!

لكن قومه يفتقدون القدوات الحقيقيين فصنعوا لأنفسهم وهماً وصدَّقوا هذا الوهم حتى صار يُدرَّس للأجيال، وللقوم إعلام قويّ يساعد على تأسيس مثل هذا الوهم وترسيخه في النفوس.

هذا وإنه يستبد بي العجب ويأخذ مني كل مأخذ عندما أقارن بين مَن عندنا من القدوات الذين يعدُّون بالآلاف وبين ذلك الرجل الذي تعرفه الدنيا كلها وتجهل حال قدواتنا؛ الذين لو كان للدنيا كلها شيء من فضائلهم لملؤوا وسائل الإعلام ضجيجاً، ونشروها بكل ما يمكنهم، أما نحن فالأجيال عندنا تجهل حال قدواتها جهلاً شنيعاً، والتقصير ظاهر من قِبَلنا في إظهار قدواتنا وتعريف أبنائنا وبناتنا بهم ثم تعريف العالم كله بأحوالهم.

وإنما ضربت نابليون مثلاً، وإلا فلكل الأمم الأخرى قدوات يُعدُّون على أصابع اليد الواحدة أو اليدين، وشتان بين حالهم وحال قدواتنا، وهناك أمر مهم ينبغي ألا يُغفل وهو أننا ننقل أحوال قدواتنا بالسند المتصل المنضبط غالباً، أما هم فليس لهم سند متصل بمصادر دينهم وشريعتهم، فكيف يكون لهم سند بأحوال قدواتهم وتفصيلات حياتهم؟!

---

(١) انظر للتفصيل كتاب «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» للشيخ الجبرتي.

وأجزم أن كل أمم الأرض تحتاج إلى بيان أحوال قدواتنا الذين غرقت سيرهم في بحر الإهمال، ولو اعتني بها الاعتناء الكافي فلربما تغيرت موازين كثيرة أجحف الغرب والشرق كثيراً في وزن أحوالنا الماضية والحاضرة بها.

أهمية القدوة في حياة الناس:

إن لبيان أحوال القدوات وتفصيل شأنهم أهمية جليلة جلية، وفوائد عظيمة لا تخفى؛ فمن ذلك:

١ ـ حسن الاقتداء:

الناس مفطورون على الاقتداء بغيرهم، واتباع سلوكهم وأفكارهم، لكن الاقتداء المطلوب يتحقق باتباع الجوانب الإيجابية في حياة العظماء ـ وهي كثيرة ـ والاستفادة منها في الارتقاء بواقع الحياة المعاصرة، والحرص على عدم الوقوع فيما تورط فيه بعضهم من أخطاء ـ وهي قد تكون قليلة مغمورة في بحر حسناتهم ـ وفي كتب التواريخ والتراجم جملة وافرة عظيمة من التجارب السامية والحياة الإيجابية الرائعة لهؤلاء العظام.

٢ ـ بث العزة في النفوس:

إن تبيين عظمة القدوات يبث العزة في نفوس الأجيال، ويوضح للعالم أجمع أنَّا نرتكز على موروثات رائعة فريدة نادرة لم ولن تتكرر في أمة من أمم الأرض، وذلك يورثنا الاحترام والتقدير.

والأمر المهم في هذا هو أن مَن عرف أن له ماضياً عظيماً ورجالاً عظماء؛ فإنه يُرجى له أن يعود إلى المجد والسيادة من جديد.

٣ ـ ضرب المثل للأجيال:

إن إظهار حياة أولئك القدوات على الوجه الذي ينبغي يعود على الشباب والشابات بأعظم النفع؛ وذلك لأن الإنسان مفطور على تقليد غيره واتباعه، فمَن لم يعرف العظماء ليتبعهم فإنه سيتبع أراذل الناس وأسافلهم، وسيكونون هم قدوته وعمدته، ومبلغ علمه وعمله ـ والعياذ بالله ـ وقد سبّب جهل حال أولئك القدوات عند الأجيال اللاحقة أسوأ الآثار، فقد اتبع كثير من الشباب والشابات اليوم أراذل الناس وتوافههم، فصاروا لهم أسوة وقدوة؛ فعلَّقوا صورهم على صدورهم وجدران بيوتهم، وصاروا يتبعونهم في أدق أحوالهم وهيئاتهم وأقوالهم، ويعرفون من أسمائهم وأحوالهم ما لا يعرفونه عن كثير من الصحابة والسلف الصالحين رضي الله عنهم أجمعين، بل عن كثير من أجلَّاء الخلف أيضاً، والعجيب أن أولئك الشباب والشابات قد عموا عن الضياء المشرق في حياة مَن سبقهم من العظام، وأبصروا جوانب مظلمة من حياة التافهين الطغام؛ ممن لا قيمة له حقيقية في دنيا الشرف والمكارم والجهاد والعطاء؛ فتعريف الأجيال بأولئك العظماء أمر مهم حتى يتأثروا بهم ويسلكوا طريق العظمة الذي عرفه أسلافهم بل لم يعرفوا غيره، وهذا واجب ملقى على كواهل المسؤولين عن المدارس والمعاهد والجامعات والمساجد ووسائل الإعلام المختلفة:

«غريب أن يصبح المثل الأعلى لشبابنا بيليه لاعب كرة القدم البرازيلي، أو محمد علي كلاي لاعب الملاكمة المحترف. . . ففي حياة كل منا مثل أعلى يعتز به ويسعى دائماً لأن يكون مثله ويحاول أن يقلده، وعندما تصبح قدوة شبابنا تلك الأسماء هنا تبرز علامة

الاستفهام الكبرى التي نضعها أمام أجهزة التنشئة التربوية... إذا كان شبابنا مثله الأعلى بيليه... فإننا نرثي للحال الذي وصلنا إليه»[١].

واليوم صُوِّر للشباب والشابات حال أهل الرياضة والفن على أنهم عظماء وأبطال «فأعجب بهم الشباب وأحبوهم وقلدوهم، بل واعتبرهم البعض المثل الأعلى في الحياة، سئل مجموعة من الطلبة المتفوقين عن المثل الأعلى في الحياة فكانت إجاباتهم على الترتيب التالي...»[٢].

«غالباً ما يكون الباعث لدى الشباب لتقليد شخص ما والاقتداء به هو الإعجاب بما يتميز به من صفات الكمال، ومن هذا المنطلق تأثر كثير من الشباب بالفنانين والرياضيين؛ لأن وسائل الإعلام دأبت على إظهارهم بصور الأبطال الفاتحين والعظماء البارزين فأعجب بهم الشباب وأحبُّوهم وقلّدوهم، بل واعتبرهم البعض المثل الأعلى في الحياة»[٣].

هذا الحال المرثيّ له نتيجة طبيعية لتغييب القدوات الحقيقيين، وإعلاء شأن التافهات والتافهين ممن لا يحملون فكراً ولا علماً ولا أدباً ولا ثقافة، ولا أي جانب من جوانب العظمة التي هي سمة القدوات الحقيقيين، ولا تَسَلْ عن مدى الخطورة في هذا الأمر حيث يغدو الشباب وقد ضعفت عقولهم، وتردّت آمالهم، وسفهت أحلامهم،

---

(١) «القدوة في محيط النشء والشباب»: ٨-٩، وهذه الأسماء المذكورة هاهنا قديمة لقدم الدراسة، لكنها مثل مضروب سائر متصل بعصرنا هذا أتم اتصال حيث شغف الملايين بنجوم الرياضة والفن كما يُسَمَّون.

(٢) ذكر الكاتب الفاضل عدداً من المنحرفين من أهل الفن أربأ عن ذكرهم هاهنا، وانظر «المنهاج النبوي في دعوة الشباب»: ٢٤٥.

(٣) «المنهاج النبوي في دعوة الشباب»: ٢٤٥.

واشتد تعلقهم بسِفساف الأمور ودناياها، وابتعدوا عن كل ما يرتقي بهم وبعقولهم وآدابهم وثقافتهم وبسلوكهم، لذلك لا عجب إن رأينا اليوم من شبابنا وشاباتنا ما يعرق له جبين الفضيلة، وتنكس له رؤوس العقلاء والصالحين، وختاماً لهذا أورد قول بعض الفضلاء: «تتعاقب الأجيال؛ تهتدي حيناً وتضل أحياناً بقدر ما تحسن اختيار قدواتها... فالقدوة إذاً منهج إنساني مؤثر في حياة البشر، وهي سلاح ذو حدين يفيد بقدر ما يضر، ويسيء بقدر ما يحسن، والفيصل بين هذا وذاك هو ذات القدوة»(١).

وأعظم مثل يُضرب للأجيال هو سيد البشر محمد ﷺ حيث إن سيرته وصفاته وأخلاقه لتؤسس مجتمعة القدوة الكاملة في كل زمان ومكان:

يقول أحد صليبيي الغرب المتعصبين(٢) واصفاً النبي الأعظم سيد المرسلين عليه أفضل الصلوات والتسليم: «قد استطاع محمد أن يبدع مثلاً عالياً للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمُثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص، وذلك المثل الأعلى الجديد هو من الخيالات لا ريب(٣) ـ شأن المثل العليا التي ظهرت قبله ـ ولكنك لا تجد من الحقائق ما هو قوي قوة هذه الخيالات، ولم يتردد أتباع النبي في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى طامعين في الجنة التي لا يعدلها شيء من متاع هذه الحياة الدنيا»(٤).

---

(١) «لكي تعود خير أمة» د. السيد رزق الطويل: ١٧٥.

(٢) هو جوستاف لوبون المشهور بحقده، لكنه لم يستطع هنا أن يخفي ضوء الشمس.

(٣) يعني أنه كان في حكم الخيال قبل أن يظهره ﷺ في الواقع.

(٤) «القدوة الحسنة وأثرها في الإعلام بالإسلام»: ٢٣٧ ـ ٢٣٨، وقد نقل المصنف من كتاب لوبون «حضارة العرب».

هذا وقد جعله الله تعالى أسوة مطلقاً فقال جلّ من قائل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

و«الأسوة: القدوة: والأسوة: ما يُتأسى به أي يُتعزَّى به، فيُقتدى به في جميع أفعاله، ويتعزى به في جميع أحواله»[2] ﷺ فلهذا كان ﷺ المثل الأعظم المضروب للأجيال كلها، ولن تفلح الدنيا حتى تتبع سيرته وتقتدي به ولو كره ذلك المشركون الحاقدون.

٤ ـ إحسان العمل:

إن المطلع على سير عظماء المسلمين في جوانب شتى من العظمة فستلحقه رغبة جامحة في الاقتداء وإحسان العمل؛ فمَن سمع بحسن صلاة السلف وطويل قنوتهم فيها وجميل خشوعهم فسيعمل على إحسان صلاته التي تكتنفها عيوب جمّة، ومَن اطلّع على طول قيامهم بالليل فيستحيي من حاله ويعزم على قيام شيء من الليل واعتياد ذلك، ومَن عرف طويل صيامهم فسيصوم شيئاً من الأيام اقتداء بهم، وقل الشيء نفسه فيمن اطلع على جهادهم وشجاعتهم، وزهدهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وارتفاعهم عن الدنايا، وجميل إقبالهم على المروءات ومعالي الأمور، وهمتهم العالية في الدعوة إلى الله وطلب العلم، وهكذا...

«إن القدوة الحسنة المتحلية بالفضائل الممتازة تعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة... إن كثيراً من الناس

---

(١) سورة الأحزاب.
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للإمام القرطبي: ١٤/ ١٥٥.

يرون أن بعض الأمور مستحيلة الوقوع لأنهم لم يعالجوا قدراتهم للقيام بها، فإذا شاهدوا غيرهم يفعلها أخذوا يطوعون قدراتهم حتى يكسبوها المهارات المطلوبة لذلك العمل بالمعالجة والمحاكاة والتدريب، إذاً لا بد من قدوة صالحة... ولابد من مثل أعلى ترنو إليه الأعين...»[1].

٥ ـ الدلالة على مكامن العظمة من هذا الدين وإمكان تطبيقه مرة أخرى:

لقد جاء الإسلام بما يكفل سعادة الناس في دنياهم وأخراهم، وأتى بشريعة سامقة فاقت كل ما يتصور أن تنتجه قرائح الناس وأفكارهم، وورد في الكتاب والسنة من الآداب والعلوم والكمالات ما لو أخذ به الناس لارتقوا في مدارج العظمة والكمال، لكن كل ذلك أو بعضه قد يخفى على أرباب الغفلة وضعاف البصيرة، أو قد يجادلون في إمكان إبرازه حقيقة مأخوذاً بها في دنيا الناس، لذلك كان من المهم بمكان دراسة حال القدوات العظام منذ جيل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين إلى يوم الناس هذا؛ وذلك من أجل أن نصيح في أهل الدنيا جميعاً: هذا ديننا، وهؤلاء العظماء أخذوا به فارتقوا وارتفعوا، وهذا الدين يكفل لمَن أخذ به والتزمه أن يرتفع كما ارتفع أولئك، وأن يندفع عنه من الشرور والمفاسد ما اندفع عنهم:

«تعد تجارب العلماء والدعاة، وتصرفاتهم في الوقائع الدعوية مصدراً هامّاً من مصادر الداعية يعينه على فهم المصادر السابقة[2] واستنباط

(١) «القدوة وأثرها» مقال في مجلة الجندي المسلم ص٦٧.

(٢) يعني الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

الأحكام منها، لأنها تطبيقات عملية لمنهج الله ورسوله ﷺ. . . وقد أخطأ بعض الناس حين غفلوا عن أهمية هذا المصدر فزهدوا به وأعرضوا عن الإفادة منه مستغنين ـ بزعمهم ـ بالكتاب والسنة. . . فليست الدعوة الإسلامية نصوصاً جامدة، أو أعمالاً وأحكاماً ثابتة، وإنما هي بجانب النصوص الشرعية والأحكام الفقهية أفهام بشرية، واستنباطات علمية، وموازنات دقيقة لا يحسنها إلا أهلها. . .

وإن كتب التراجم والسير حافلة بمثل هذه الوقائع والتجارب المفيدة، ومع الاعتراف بأولوية وأهمية وقائع السلف ودعاتهم فإنه لا ينبغي للدعاة أن يزهدوا بوقائع علماء عصرهم وتجارب الدعاة المعاصرين. . . »[١] وما أجمل قول أحد الفضلاء: «في السابق، وفي عهد الرسالة وعهد سلف الأمة كانت المصاحف تمشي، نعم كانت المصاحف التي تمشي أكثر بكثير من المصاحف التي أوقفها أهل الخير في المساجد. . . »[٢].

ولأن كثيراً من السلف والخلف كانوا عظماء فقد انتشر الإسلام بهم في أصقاع كثيرة من الأرض بلا قطرة دم واحدة، بل إن جزر الملايو ـ وهي أكبر بلاد الإسلام اليوم عدد سكان ـ إنما دخلها الإسلام بسبب اقتناع أهلها بجوانب العظمة في هذا الدين لمّا رأوا نماذج رائعة من أهله، وقل الشيء نفسه في إفريقية ومجاهلها، وآسية وأدغالها وشواطئها، وذلك لأنه قد يتعذر«التبليغ بالإسلام بين أقوام تختلف لغتهم عن لغة الداعي، أو حتى حين تقصر عبارات الداعي في التعبير

---

(١) «المدخل إلى علم الدعوة»: للشيخ محمد أبو الفتح البيانوني، المصدر الخامس.

(٢) «القدوة وأثرها» مقال في مجلة «الجندي المسلم» جمادى الآخرة سنة ١٤١٢ص٦٤.

عن المعاني التي يرغب الإعلام بها، وفي هذه الحالة تعبر الأفعال عن الأقوال، ويكون الاقتداء والتقليد مكان التلقين والتعليم»[١].

و«القدوة الحسنة تقدم واقعاً يغني عن الكثير من أساليب التبليغ والتأثير»[٢].

ولعله من المفارقات العجيبة أن أكثر المسلمين اليوم يصدُّون عن دين الله تعالى الآخرين بسبب سوء سلوكهم وبُعدهم عن دينهم فينفر الناس منهم، في الوقت الذي أقبل فيه أسلافهم على الإسلام بسبب ما رأوه من حسن الخلق وجمال الأدب وكمال السلوك.

إذاً وجود القدوات في غاية الأهمية للدلالة على مكامن العظمة من هذا الدين ولإثبات أنه يمكن تطبيقه والعمل به في كل حين، و«لقد كان المنهج التربوي الفريد الذي ربى عليه الإسلام أبناءه أثر كبير في واقع المسلمين التاريخي؛ فلم يعد الإسلام نظريات مجرَّدة، ولا مجموعة إرشادات ومواعظ، وإنما عاد نماذج إنسانية تعيش، ووقائع عملية تتحقق، وسلوكاً وتصرفات تُرى بالعين وتُسمع بالأذن، وتترك آثارها في واقع الحياة، وعلى مدى التاريخ، وأوجد نماذج بشرية صاغها صياغة جديدة، وأنشأها نشأة أخرى فأصبحت وكأنها مصاحف تمشي على الأرض...»[٣].

٦ ـ الإعجاب المؤدي للاتباع:

إن في القدوات مجموعة من الأخلاق والصفات التي تثير إعجاب

(١) «القدوة الحسنة وأثرها في الإعلام بالإسلام»: ٢٤٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «القدوة الصالحة» للأستاذ حسني أدهم جرار: ٥.

الناس بهم، ومحبتهم إياهم، ثم اتباعهم والاقتداء بهم، وهذا في كل زمان ومكان، وإذا أراد الله تعالى بقوم خيراً هداهم إلى الإعجاب بالقدوات الحقيقيين ومحبتهم واتباعهم، وقد أحبّ الناس رسول الله ﷺ وأعجبوا بأخلاقه وسلوكه إعجاباً منقطع النظير، فاتبعوه وآثروا ما جاء به، وقدَّموا أرواحهم فداءً له، وما أصدق قول أبي سفيان رضي الله عنه[١] حين قال: «ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً»[٢].

وقد أُعجب الناس بالصحابة رضي الله عنهم لما فتحوا بلادهم، وأحبُّوهم حبَّاً أدى بهم إلى الدخول في دين الله أفواجاً، بل إن من استمسك بدينه منهم ترك لغته وحضارته واستمسك بلغة الفاتحين وثقافتهم، يقول الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى:

«الإعجاب لا ينبت في النفس خَبْطَ عشواء، أتظن العقول النضرة تعجب بالعقول الخَرفة؟ أتظن الأخلاق الرضية تعجب بالأخلاق الرديئة؟ أتظن المتقدم في أفكاره ومشاعره يعجب بالمتخلف في هذه وتلك؟ كلا، إن المسلمين استحقُّوا أن يتأسى الناس بهم، وأن ينسجوا على منوالهم، وأن يقلدوهم في أقوالهم وأعمالهم، وأن يهجروا لغتهم الأصلية إلى اللغة العربية الوافدة لأن المسلمين كانوا يمثلون في العالم نهضة مجددة راشدة سَعِدة، والمعجب بك قد يذوب فيك، ذلكم هم ما حدث في المستعمرات التابعة من قرون للشرق والغرب.

---

(١) صخر بن حرب بن أمية، أبو سفيان القرشي الأمويّ. كان أسنَّ من النبي ﷺ بعشر سنين. أسلم عام الفتح وشهد حنيناً والطائف. مات في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنهما. انظر «الإصابة»: ٢/ ١٧٣.

(٢) «السيرة النبوية لابن هشام»: ٣/ ١٧٢.

إن من الغباء أن تنتظر أحداً يؤمن بك عقب انتصار في معركة جدل أو انتصار في ميدان حرب، إن المقهور في أحد الميدانين قد يستسلم راضياً أو ساخطاً بَيْدَ أنه[١] لن يتبعك عن إخلاص، ولن يشاركك الشعور والفكر أبداً، ومن ثَمّ نرى لزاماً علينا التوكيد بأن القدوة وحدها وما يبعث على الاقتداء من إعزاز وإعجاب هما السبيل الممهد لنشر الدعوة في أوسع نطاق»[٢].

٧ ـ النيابة عن الدول والمؤسسات الرسمية في الدعوة إلى الله تعالى:

إن الدول والمؤسسات الدعوية الرسمية مطالبة بنشر الإسلام في أصقاع الأرض وتبليغه التبليغ الحسن للعالمين، وقد قصرت أكثر الدول والمؤسسات في أداء هذه المهمة السامية والوظيفة الجليلة، التي هي على الحقيقة وظيفة المرسلين، فالمسلم إذاً إذا كان قدوة حسنة فإنه ينوب عن تلك الدول والمؤسسات في تبليغ رسالة الإسلام، بل قد يعمل أعمالاً ويترك آثاراً تعجز عنها دول مجتمعة ومؤسسات كثيرة، وهذا مشاهد معلوم في دنيا الناس، فكم دخل في الإسلام من الأقوام والشعوب على أيدي أولئك القدوات؟! إنه عدد عظيم لا يحصيه إلا الله تعالى، فالقدوات في كل مكان اليوم مطالبون بفهم هذا الأمر والتصرف بموجبه، فالعالم كله اليوم ينتظر جهودهم وأعمالهم المباركة، لقد كان للقدوات قديماً أعمال رائعة وحركة مباركة في نشر هذا الدين، ولأضرب مثلاً على هذا برجل كان له عمل مبارك في نشر

---

(١) أي: لكنه.

(٢) «مع الله: دراسات في الدعوة والدعاة»: نقلاً عن «القدوة الحسنة وأثرها في الإعلام بالإسلام»: ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

الإسلام في جزر الملايو ألا وهو الشريف أبو بكر بن زين العابدين[١] حيث «كان متمكناً من علم الأحكام الشرعية والنظامات الإسلامية [كذا] والدين، عارفاً بأسراره والدعوة إليه، مشهوراً بالدعوة إلى الإسلام في جزر الملايو، هذا الشريف العامل المجد، والداعي المجتهد كان الداعي الذي لا يمل، والعاملَ الذي لا يكلّ، فأسّس المساجد هناك، ونشر علم الدين وقام بتعليمه، وترك الشعوب والرؤساء معبوداتهم وأوثانهم، وولَّوا وجوههم للذي فطر السموات والأرض، وتعمَّقوا في معرفة الوصايا الإيمانية والنصائح الدينية، سار ذلك ببطء ولكنه متقدم إلى الأمام.

لم يوجد في سيرة هذا الشريف ـ بل الإمام الداعي إلى الله حامل بشرى الإسلام لمن كتب الله له السعادة والهدى ـ أن له جيشاً، ولم تظهر له قوة عسكرية، ولكنما كان جيشه الأعظم الذي لا يُهزم وقوته العسكرية التي لا تضعف ولا تخذل هو فضله العظيم، وعمله القويم، وعلمه الغزير، ذلك الذي خوَّله أن يظهر بمظهر القوة ويحكم البلاد. . . »[٢].

(١) لم أقف له على ترجمة.

(٢) «المدخل إلى تاريخ الإسلام في الشرق الأقصى»: ٧٥، نقلاً عن كتاب «القدوة الحسنة وأثرها في الإعلام بالإسلام»: ٣٢٧.

حال الناس مع القدوات

وبعد هذا التمهيد أقرر فأقول: إنه قد انقسم الناس حيال قدواتهم إلى أقسام:

١ ـ قسم انبهر بهم انبهاراً أقعده عن الأخذ بفوائد الجوانب الإيجابية في حال أولئك العظام.

٢ ـ وقسم نذر نفسه لهدم هذه القدوات وتحطيمها بأسباب بعضها أعجب من بعض.

٣ ـ وقسم ثالث توسّط فاستفاد من الإيجابيات الجمّة، ونأى بنفسه عن مواطن الخطأ القليلة وغير المقصودة.

وهذا أوان الشروع في تفصيل حال أولئك، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

المبحث الأول
الانبهار بالقدوات

ذكرت فيما مضى أهمية إبراز سِيَر القدوات، وأثر ذلك في حياة المسلمين، والأمر يكاد يكون متفقاً على أهميته، لكن هناك مرض سائد يصيب كثيراً ممن يطلع على حياة أولئك العظماء، ألا وهو مرض الانبهار بالقدوة انبهاراً يؤدي به إلى التسليم المطلق بأنهم طائفة من الناس لا يمكن اللحاق بهم ولا التأسي بفعالهم، وأنه لا يمكن للمرء مهما صنع أن يبلغ ما بلغوا أو يدرك ما أدركوا.

وليس الانبهار أمراً سيئاً، ولا شيئاً مرذولاً، بل هو أمر يكاد يكون ضروريًّاً لاتباع أولئك القدوات والتأسي بهم، كما بينت ذلك سابقاً في التمهيد، لكني أقول إن المحذور هو الانبهار المؤدي إلى القعود عن اللحاق بالقدوات والتسليم المطلق بعدم إمكان عمل شيء مقارب لعملهم ولا جزء منه، وهنا ينقلب الانبهار إلى سلبية كبرى ومرض عُضال؛ إذ ما من شيء أخطر من أن ينغرس في عقول الأجيال وقلوبهم صورة عن القدوات أنهم شيء أشبه بالخيال منه بالواقع، وأن سيرتهم لا يمكن تكرارها ولا تكرار شيء منها، فتنقطع بذلك الفائدة المأمول حصولها بسرد حياة أولئك العظام.

وإليك أخي القارئ وأختي القارئة شيئاً من الأخبار الواردة عن بعض القدوات العظام التي قد تؤدي إلى الانبهار السلبي بهم: «كان سهيل[١] بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغيَّر، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن»[٢].

«كان صفوان بن سُليم[٣] يصلي في الشتاء في السطح، وفي الصيف في بطن البيت، يتيقظ بالحر والبرد حتى يصبح ثم يقول، هذا الجهد من صفوان وأنت أعلم، وإنه لترمَ رجلاه[٤] حتى يعود كالسِّقط من قيام الليل ويظهر فيه عروق خضر»[٥].

وقال عنه أحد السلف: «رأيت صفوان بن سُليم ولو قيل له: غداً القيامة ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة»[٦] الله أكبر.

ـ وهذا ابن أبي ذئب[٧] كان يصلي الليل أجمع ويجتهد في العبادة،

---

(١) سهيل بن عمرو العامريّ القرشيّ رضي الله عنه. تأخر إسلامه إلى يوم الفتح، ثم حسن إسلامه، وكان سمحاً جَوَاداً مفوهاً. استشهد يوم اليرموك. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٤.

(٣) الإمام الثقة الحافظ الفقيه، أبو عبد الله الزهري المدني، مولى حُميد بن عبد الرحمن بن عوف. قال الإمام أحمد عنه: من الثقات، يُستشفى بحديثه، وينزل القطرمن السماء بذكره. توفي سنة ١٣٢وله ٧٢ سنة رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٩.

(٤) أي: تتورم.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤٩٨.

(٦) المصدر السابق.

(٧) محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة، أبو الحارث القرشي العامري المدني، الفقيه الإمام شيخ الإسلام، من علماء المدينة المنورة. قدم بغداد فأخذ عنه الناس العلم =

ولو قيل له: إن القيامة تقوم غداً ما كان فيه مزيد من الاجتهاد.

وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ثم سرد الصوم[(١)].

- وهذا هَنّاد بن السَّرِيّ[(٢)] - رحمه الله تعالى - يحكي سيرته أحد تلاميذه فيقول:

كان «كثير البكاء»، فرغ يوماً من القراءة لنا، فتوضأ وجاء إلى المسجد فصلّى إلى الزوال - وأنا معه في المسجد - ثم رجع إلى منزله فتوضأ وجاء فصلّى بنا الظهر، وأخذ يقرأ في المصحف حتى صلّى المغرب، قال: فقلت لبعض جيرانه: ما أصبره على العبادة!!

فقال: هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيت عبادته بالليل[(٣)]!!

- وهذا سليمان بن طَرْخان[(٤)]، كان من العباد المجتهدين، يصلي الليل كله بوضوء عشاء الآخرة، وكان هو وابنه يدوران بالليل في المساجد فيصليان في هذا المسجد مرة وفي هذا المسجد مرة حتى يصبحا[(٥)].

= وأكرمه الخليفة المهدي، ثم عاد إلى بلاده فأدركه الأجل بالكوفة غريباً سنة١٥٩ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٧/ ١٣٩ - ١٤٠.

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٨٥.

(٢) هَنّاد بن السَّرِيّ بن مصعب، أو السَّريّ التميميّ الدارمي الكوفي، الإمام الحجة القدوة، زين العابدين. ولد سنة ١٥٢، وتوفي سنة٢٤٣ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١١/ ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٨٤٧ - ٨٤٨.

(٤) سليمان بن طَرْخان التيميّ البصريّ، أبو المعتمر، الإمام، شيخ الإسلام، نزل في بني تيم فنسب إليهم. كان كثير الحديث، ثقة. توفي - رحمه الله تعالى - بالبصرة سنة ١٤٣ وهو ابن سبع وتسعين سنة. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ١٩٥ - ٢٠٢.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٤٠ - ٦٤١.

وقال ابنه: مكث أبي أربعين سنة يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويصلي صلاة الفجر بوضوء عشاء الآخرة[١].

وقال أحد السلف: ما كنت أشبِّه عبادة سليمان التيميّ إلا بعبادة الشاب أوَل ما يدخل في تلك الشدة والحدة[٢].

وهذا الإمام عبد الرحمن بن القاسم العُتَقيّ[٣] تلميذ الإمام مالك[٤] ـ رحمهما الله تعالى ـ يحدث عن حال شيخه مالك فيقول: «كنت آتي مالكاً غَلَساً[٥] فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر، فكنت آتي كل سحر، فتوسدت مرة في عتبته فغلبتني عيني فنمت، فخرج مالك إلى المسجد فلم أشعر به، فركضتني ـ جارية ـ سوداء له برجلها وقالت: إن مولاك قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة ما صلّى الصبح إلا بوضوء العَتَمة[٦]، ظنّت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه عليه»[٧].

ـ وهذا الحافظ الكبير عبد الغني المقدسيّ[٨]: «كان لا يضيع شيئاً

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العُتَقي ـ بالولاء ـ المصري، صاحب الإمام مالك، ولد سنة ١٣٢كان ذا مال ودنيا فأنفقها في العلم، وله قدم في الورع والتألُّه. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٩١. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٩/ ١٢٠ ـ ١٢٥.

(٤) مالك بن أنس بن مالك، أبو عبد الله الأصبحي المدني، صاحب المذهب، المشهور. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٧٩ودفن بالمدينة. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٨/ ٤٨ومابعده.

(٥) أي: قبل الفجر في ظلمة الليل.

(٦) أي: العشاء.

(٧) «ترتيب المدارك»: ٣/ ٢٥٠.

(٨) الإمام العالم الحافظ الكبير الصادق، القدوة العابد الأثري عالم الحفاظ تقي الدين =

من زمانه بلا فائدة؛ فإنه كان يصلي الفجر ويُلَقِّن القرآن، وربما أقرأ شيئاً من الأحاديث تلقيناً، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاثمئة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قبل الظهر، وينام نومة، ثم يصلي الظهر، ويشتغل إما بالتسميع أو النسخ إلى المغرب، فإن كان صائماً أفطر، وإلا صلّى من المغرب إلى العشاء، ويصلي العشاء وينام إلى منتصف الليل أو بعده، ثم قام كأن إنساناً يوقظه. . . ويصلي إلى قرب الفجر. . . ثم ينام نومة يسيرة إلى الفجر، وهذا دأبه»(١).

ـ وهذا أخوه الشيخ أبو عمر(٢) كان يصلي بالناس مئة ركعة وهو مسن، ولا يترك قيام الليل من وقت شبوبيته، وإذا رافق ناساً في السفر ناموا وحرسهم يصلي. وكان كثير الأوراد والذكر، وكان ربما تهجّد فإن نعس ضرب على رجليه بقضيب حتى يطير النعاس، وكان يكثر الصيام، ولا يكاد يسمع بجنازة إلا شهدها، ولا مريض إلا عاده،

= أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي المقدسيّ الجَمّاعيليّ ثم الدمشقي المنشأ الصالحي الحنبلي. ولد بجمَّاعيل ـ من فلسطين ـ سنة ٥٤١، وسمع الكثير من الأحاديث في بلدان مختلفة وكتب الكثير. وكان عظيم الخَلْق، تامّ القامة، كأن النور يخرج من وجهه. كان يبكي كثيراً ويُبكي مَن حضره. وكان صاحب أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وله كرامات. توفي رحمه الله تعالى سنة ستمئة. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٤٤٣ ـ ٤٧١.

(١) «نزهة الفضلاء»: ٣/ ١٥١٥.

(٢) الإمام العالم الفقيه، المقرئ، المحدث، البركة، شيخ الإسلام أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسيّ الجَمّاعيليّ الحنبليّ الزاهد. ولد سنة ٥٢٨بقرية جَمّاعيل من أعمال نابلس. تحوّل إلى دمشق هو وأبوه وأخوه وقرابته مهاجرين إلى الله وتركوا المال والوطن لاستيلاء الفرنج. وكان قدوة صالحاً عابداً قانتاً لله، خاشعاً مخلصاً، عديم النظير، كبير القدر، كثير الأوراد والذكر. توفي سنة ٦٠٧ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٥ ـ ٩.

ولا جهاد إلا خرج فيه، ويتلو كل ليلة سُبعاً[١] مرتّلاً في الصلاة، وفي النهار سُبعاً بين الصلاتين، وإذا صلّى الفجر تلا آيات الحرس ويس والواقعة وتبارك، ثم يُقرئ ويُلقِّن إلى ارتفاع النهار، ثم يصلي الضحى فيُطيل، ويصلي طويلاً بين العشاءين، وكانت نوافله في كل يوم وليلة اثنتين وسبعين ركعة، وله أذكار طويلة، وله أوراد عند النوم واليقظة وتسابيح، وكان يخدم بالجامع المظفري ويبكي الناس، وكان إذا سمع بمنكر اجتهد في إزالته[٢].




(١) أي: سبع القرآن.
(٢) «نزهة الفضلاء»: ٣/١٥٢٩ ـ ١٥٣٠.

الواجب إزاء هذه الأخبار ومثيلاتها

هذه الأخبار ومثيلاتها ينبغي أن يلاحظ فيها الآتي:

أولاً: إن سردها في كتب السير له أعظم الأثر في حث الناس على طرق أبواب الخير والتنافس فيها، وهذا مقصود مهم من إيرادها ولا شك.

ثانياً: ينبغي على المرء العاقل ألّا يسارع بالرد والتكذيب لمثل هذه الأخبار؛ إذ أن كثرة ورودها وتعدد طرقها وتنوع الأفعال الصالحة فيها يدل على صحتها في الجملة، وأنها من محاسن المسلمين وتراثهم الإيماني المجيد، وعظيم صلتهم بمولاهم جلّ جلاله، وأنهم قد تفرّدوا بهذا بين الأمم.

ثالثاً: إن الذين وردت عنهم هذه الأخبار هم عدد قليل جدًّاً بالنسبة لمجموع الصالحين والعاملين، فكأن الله تعالى نصب أولئك العظماء ليكونوا علامات فارقة متميزة في دنيا الناس، فهم حتى بين السلف العظام قلة قليلة، وقياس الآخرين عليهم ليس بجيد ولا ينبغي، وخلاصة القول في الذين وردت عنهم أخبار في التعبُّد ـ تصل إلى الغاية ـ أنهم قوم لله بهم عناية، وأنهم لا يتكررون كثيراً في أجيال

المسلمين المتعاقبة، فهذا سفيان الثوريّ وهو مَن هو[١]، يقول عن أحد أقرانه العظماء: عبد الله بن المبارك[٢] مقالة مهمة، تلخص هذا الذي أردت بيانه، إذ يقول رحمه الله تعالى: «إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة مثل ابن المبارك فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام»[٣].

وكان الإمام ابن عون[٤] عابداً زاهداً، قليلٌ نظراؤه، قلّ أن يوجد مثله، وهذا أحد أصحابه يقول كلاماً يصفه فيه وصفاً يلخص ما أردت قوله: «إني لأعرف رجلاً منذ عشرين سنة يتمنى أن يسلم له يوم من أيام ابن عون فما يقدر عليه»[٥].

فإذا عرفنا هذا من مقولة سفيان ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره، فإنه يُعرف تميز أولئك العظام حتى بين أقرانهم الذين هم في الصلاح غاية ومنارات هداية ورشد أيضاً، وليس من المجازفة القول بأنهم قد لا يتكررون في التاريخ بعد ذلك أبداً، والله أعلم.

رابعاً: إن هذه الأخبار لم تُسرد بغرض أن يُقتدى بأصحابها حذو القُذَّة بالقُذَّة، لا ليس لهذا سيقت، لكنها سيقت لغرض الاتِّساء

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أبو عبد الله. ثقة، حافظ، فقيه، عابد، إمام، حجة، مات سنة ١٦١ رحمه الله تعالى وله أربع وستون سنة. انظر «التقريب».

(٢) عبد الله بن المبارك الحنظليّ ـ بالولاء ـ التركي ـ شيخ الإسلام، الإمام العامل الغازي. ولد سنة ١١٨، وتوفي سنة ١٨١ رحمه الله تعالى. انظر سيرته في «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٣٧٨ ـ ٤٢١.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٥.

(٤) عبد الله بن عون بن أرطبان، الإمام القدوة، عالم البصرة، المزني بالولاء، البصري الحافظ. توفي سنة ١٥١ وقد عاش خمساً وثمانين سنة. انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٣٦٤ ـ ٣٧٥.

(٥) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٤٤.

والاقتداء في الجملة، بل إن بعض هذه العبادات الطويلة لم يعد صالحاً لزماننا ولا نقدر عليه، فإن صلينا معظم الليل فأين العمل في النهار؟! ومتى نلحق بمَن سبقنا؟!

وكيف نُعمِّر الأرض؟! فالمطلوب اليوم نوع آخر من العبادة قد يكون معه إتيان بعض عبادات السلف المطولة مفضولاً أو مرجوحاً.

هذا وقد كلمني بعض الأخوة الذين أثق في صلاحهم والله حسيبهم أنهم يكادون يحبطون عندما يقرؤون أخبار التعبُّد الطويل الرائعة عند سلفنا، ويصيبهم اليأس لعلمهم بصعوبة أو استحالة أن يبلغوا ما بلغ أولئك أو يصنعوا ما صنعوا. وطالبني بعضهم بالإقلال من إيراد مثل هذه الأخبار التي تؤدي إلى ما ذكرت آنفاً، فبيّنت لهم أن هذا الذي أصابهم هو مرض الانبهار المطلق بحال أولئك، واليأس الكامل من بلوغ ما بلغوا، بينما ينبغي أن يكون من غرضنا عند مطالعة أخبار أولئك العظماء شحذ الهمم، والارتقاء بالعبادات والمعاملات إلى درجة مقبولة تعين العبد على السير في دروب الحياة المليئة بالملهيات والمثبطات، وعندما يقرأ المسلم مثل هذه الأخبار ينبغي أن يتعامل معها مثل هذا التعامل الإيجابيّ، فإن صنع فإنه سيتولد له من الطاقات والقدرات، وترتقي به الهمة إلى درجة لم يكن يعرفها من نفسه من قبل، ولم يكن يدريها ولا يدركها.

من آثار الانبهار السلبي بالقدوات:

أولاً: الإحباط، واليأس من الوصول إلى ما وصل إليه أولئك العظام أو شيء مما وصلوا إليه، وقد فصلت الكلام فيه آنفاً، لكني سأذكر شيئاً يتعلق به أو من لوازمه في النقطة التالية.

ثانياً: قتل الإبداع:

وهذا المرض يصيب بعض المنبهرين من أصحاب المواهب والطاقات والقدرات؛ إذ يظنون أنه ليس بالإمكان أن يأتوا بشيء بعد صنيع فلان وفلان، وأنه لم يترك أولئك لهم شيئاً يصنعونه، وهؤلاء يتصورون القدوات الكبار جبالاً مانعة لهم من التقدم، حاجزة إياهم عن الرؤية، ويسلمون تماماً بأنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، وهذا مكمن الخطر؛ إذ يؤدي هذا الأمر إلى قتل الإبداع والمواهب، وظهور الغلو والتعصُّب كما سأبين ذلك في النقطة القادمة إن شاء الله تعالى.

وهناك مثال لغوي لطيف على هذا الأمر؛ وهو ما كان في الأندلس من انبهار عظيم بطائفة من اللغويين المغاربة الكبار حتى ظن الناس أنه لن يوجد مثلهم، وأنه لا يمكن لأحد أن ينبغ نبوغهم أو يصنع صنيعهم، وهذا نصٌّ يبين المسألة ويوضحها: «استمرت العصبية الأندلسية للغويين المغاربة: أبي علي القالي[1]، وأبي بكر الزبيديّ[2]،

---

(١) العلامة اللغوي، أبو علي إسماعيل بن القاسم بن هارون البغداديّ القالي. ولد سنة٢٨٠، وأخذ العربية عن طائفة ثم تحول إلى الأندلس ونشر بها علمه حيث دخلها سنة ٣٣٠. له عدة تصانيف مهذبة. توفي بقرطبة سنة ٣٥٦رحمه الله تعالى. والقالي نسبة إلى قرية «قاليقلا» من أعمال منازكرد من إقليم إرمينية، وقد رافق قوماً من تلك القرية فعُرف بهذا اللقب. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٤٥ـ٤٧.

(٢) إمام النحو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله الزبيدي الشامي الحمصي ثم الأندلسي الإشبيليّ، صاحب التصانيف. كان أوحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة. وكان أخبرَ أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر إلى علم السير والأخبار لم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه. توفي رحمه الله تعالى سنة ٣٧٩ وله٦٣سنة. انظر المصدر السابق: ١٦/ ٤١٧ ـ ٤١٨.

ومنذر بن سعيد[١]، وأمثالهم **تسد الطريق على كل وافد بجديد** من علم اللغة والتآليف التي طفحت بها البلاد المشرقية في القرن الرابع. . . حتى نبغ في أوائل القرن الخامس شاب ضرير ظهر بمدينة مرسية من شرقي الأندلس تكون بنفسه وأبيه ثم بالتخرُّج على صاعد البغداديّ[٢]، ذلك هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سِيْدَهْ[٣] **فكان له من الإعجاب بنفسه والاعتداد بسعة علمه[٤] ما سما به عن منهج العصبية، ونزع به إلى استصغار ما كان يستكبره معاصروه ببلاد الأندلس،** فأقدم بذلك على تصنيف اللغة تصنيفاً جديداً سَنّ منهجه على إتقان الترتيب واستيعاب المواد، وتوجيه اللغة بالنحو والتصريف من كل ما أُخذ على المتقدمين خلو تصانيفهم عنه، فأخرج على ذلك المنهج كتابيه العظيمين المرتب أحدهما على الألفاظ وهو كتاب

---

(١) منذر بن سعيد البلوطيّ، أبو الحكم الأندلسي، قاضي المالكية بقرطبة. كان فقيهاً محققاً، وخطيباً بليغاً مفوهاً مع الدين والصلاة وكثرة الصيام والتهجد والصدع بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم. توفي سنة ٣٥٥ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨.

(٢) أبو علي صاعد بن الحسن بن عيسى الرَّبَعِي البغداديّ اللغويّ. رحل إلى الأندلس في حدود الثمانين والثلاثمئة. وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار، سريع الجواب، حسن الشعر، طيب المعاشرة، ممتعاً. وكان يتهم بالكذب في بعض حديثه وأخباره توفي سنة ٤١٧ بصقلية رحمه الله تعالى. انظر «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٨٨ـ ٤٨٩.

(٣) إمام اللغة، أبو الحسن علي بن إسماعيل المُرسي الضرير، أحد مَن يُضرب بذكائه المثل، وهو حجة في نقل اللغة، وله مصنفات نافعة، وحظ في الشعر. وكان أبوه ضريراً أيضاً وقد أخذ عنه اللغة وعن غيره. توفي رحمه الله تعالى سنة ٤٥٨ وقد بلغ الستين أو نحوها. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ١٤٤ـ ١٤٦.

(٤) أي: الاعتداد الواجب وجوده في نفس مَن طمح للمعالي ورغب في الانعتاق من أَسْر الانبهار السلبي.

«المحكم»، والآخر على المعاني وهو كتاب «المخصص»... وقد جَلّى ابن سيده في هذا الميدان، ولا سيما بكتاب «المحكم» الذي بقي عمدة العمد للمعاجم اللغوية على مر القرون»(١).

أرأيت أخي القارئ كيف يكون الشأن إذا قدَّر المرء موهبته وعرف قدراته ثم انطلق ليحقق الكثير في دنيا الناس؟

ثالثاً: الغلو في تعظيمهم:

وهذا ظاهر في عدد من أتباع تلك القدوات وأتباع أتباعهم إلى يوم الناس هذا، إذ قد صدرت بعض العبارات التي يُفهم منها غلو ظاهر في التعظيم لا يتماشى مع قواعد الشرع المطهّر، فمن أمثلة ذلك:

أ ـ قال يونس بن عبد الأعلى(٢) يصف الإمام الشافعيّ(٣): «لو جمعت أمة لوسعهم عقله» ولا ريب أن هذا غلو في الشافعي الإمام، وهو والله جدير بكل خير، لكن ليس هكذا يمدح رحمه الله تعالى، لذلك قال الإمام الذهبي(٤) معلقاً وصدق رحمه الله تعالى: «هذا على سبيل المبالغة؛ فإن الكامل العاقل لو نقص من عقله نحو الربع لبان

---

(١) «ومضات فكر»: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصَّدَفي، أبو موسى المصريّ، ثقة. توفي سنة ٢٦٤ وله ست وتسعون سنة رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٦١٣.

(٣) محمد بن إدريس الشافعيّ، الإمام المشهور. كان ذا ذكاء نادر وصاحب لغة مستقيمة لم يؤثر عنه لحن قط. توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٠٤. انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٥وما بعدها.

(٤) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين أبو عبد الله التركماني الذهبي محدث عصره. ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألّف مصنفات جامعة نافعة. توفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضر رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» ٩/ ١٠٠ـ ١٢٣.

عليه نقصٌ ما ولبقي له نظراء، فلو ذهب نصف ذلك العقل لظهر عليه النقص، فكيف به لو ذهب ثلثا عقله، فلو أنك أخذت عقول ثلاثة أنفس مثلاً وصيَّرتها عقلاً واحداً لجاء منه كامل العقل وزيادة»[(١)].

ب ـ وهذا غلو آخر فَجّ، حيث قال أحد الفضلاء: «لَسَوْطٌ ضربه أحمد بن حنبل[(٢)] في الله أكبر من أيام بشر بن الحارث[(٣)]»[(٤)].

وهذا غلو غير مقبول، وقد قال الذهبيّ رحمه الله تعالى ضابطاً هذه المسألة: بشر عظيم القدر كأحمد، ولا ندري وزن الأعمال إنما الله يعلم ذلك[(٥)].

ج ـ وقال أحد الناس يصف منزلة الإمام أحمد في بلاد العجم: «عندنا بخراسان يظنون أن أحمد لا يشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة»[(٦)] وهذا غلو لا يصلح.

د ـ وقال آخر وقد بلغ النهاية في الغلو والانحراف: «نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة» والعياذ بالله[(٧)].

---

(١) «نزهة الفضلاء» ٢/ ٨٤٦.

(٢) أحد الأئمة الكبار المتبوعين أصحاب المذاهب، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني. ولد سنة ١٦٤وتوفي سنة ٢٤١ ببغداد رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١١/ ١٧٧ ـ ٣٥٨.

(٣) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن، الإمام المحدث الزاهد الرباني القدوة، شيخ الإسلام، أبو نصر المروزي ثم البغدادي المشهور بالحافي. ولد سنة ١٥٢وتوفي سنة ٢٢٧ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في المصدر السابق: ١٠/ ٤٦٩ ـ ٤٧٧.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٩٢٦.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق: ٢/ ٩٢٧.

(٧) المصدر السابق.

هـ ـ وقال آخر: «كنت إذا سمعت شخصاً يقول: أخطأ النووي[١] أعتقد أنه كفر»[٢].

تلك كانت بعضَ النصوص الواردة في بيان الغلو الذي أصاب بعض الناس بسبب الانبهار المطلق بقادتهم، والنصوص كثيرة جدًّاً خاصة تلك الواردة على لسان بعض متَّبعي أئمة المذاهب المتبوعين لكني أكتفي بما أوردت؛ والعبرة قد تحصل بأدنى النقل وأقله، والله أعلم.

(١) مفتي الأمة، شيخ الإسلام يحيى بن شرف بن مُرِّي، محيي الدين أبو زكريا النووي، الحافظ الفقيه الشافعي، الزاهد. ولد سنة ٦٣١بـ (نوى) إحدى قرى حوران ببلاد الشام، وقدم إلى دمشق واجتهد في طلب العلم والتعبُّد، وألّف مصنفات نافعة جدّاً. توفي بـ (نوى) سنة ٦٧٦ رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات» ٤/ ٢٦٤ـ ٢٦٨.

(٢) «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام»: ٣٦٩.

المبحث الثاني
تحطيم القدوات!!

وهذا عنوان غريب عجيب؛ إذ كيف يمكن لأمة أو لأفراد منها يحسبون ضمن قافلة عقلائها أن يقوموا بهذا العمل العجيب، حيث إن القدوات للأمم أعظم كنوزها وثرواتها، وهم عنوان للأمة بهم تُعرف، وبآثارهم تشتهر، وعلى خطواتهم تسير، وبجهادهم وعملهم تستنير، لكن طائفة منا لم ترضَ بهذا ولم تقنع به فأخذت على عاتقها القيام بمهمة غريبة مريبة عجيبة ألا وهي تحطيم أولئك القدوات، وهدمهم، والعمل على تشويه تاريخهم، والحط من شأنهم، ووصمهم بتهم هم منها براء، ووصفهم بصفات النقص.

والعجيب أنه في الوقت الذي تبحث فيه الأمم عن قدوات ليتبعوها، وعظماء ليظهروهم فلا تكاد أمم كثيرة تجد منهم أحداً، نعمد نحن إلى عظمائنا فنهدمهم وإلى قدواتنا فنحطمهم بأعذار واهية غير مقبولة، زينها الشيطان في أعين بعضنا، حتى استساغ ذلك الصنيع وصار ديدنه.

والخطر الكبير في هذا الصنيع يتضح في الآتي:

١ ـ تواري عظمة أولئك القدوات في النفوس، بحيث إن الإصرار على النيل من أولئك العظماء يؤدي إلى عزوف الأجيال عنهم وانصرافها عن اتباعهم.

وأمر خطير آخر ألا وهو:

٢ ـ اهتزاز ثقة الناس بحملة الشرع ومبلغي الرسالة، فلا يعودون يثقون بأحد؛ وذلك أنه إذا صار القدوات متهمين، وأصبح العظماء الأكابر أقزاماً في أعين الناس فماذا بقي بعد هذا؟! وإلى أين نحن صائرون؟!

وينتج عن الأمرين السابقين شيء ثالث هو أشبه بثالثة الأثافي ألا وهو:

٣ ـ بحث الناس عن قدوات آخرين قد لا يكونون صالحين، بل قد يعدُّون من جملة التافهين والصغار، ممن بذلوا حياتهم لهدم الشرائع والشعائر، وبث الفحشاء وإشاعتها، وإماتة المعاني العلية من نفوس البشرية، وهذا أمر حاصل؛ إذ كم من فتى غر جاهل التزم الإسلام مدة ثم انسلخ عن هذا الالتزام لما تبين له أن الناس لا يكادون يستقرُّون على تعظيم قدواتهم، وأن المجتمع لا يعدم واحداً من أفراده أو مجموعة ليس لها هم إلا تحطيم قدوات الآخرين، وأن مَن كان معظماً ها هنا صار متهماً هنالك، فأدى به كل هذا إلى أن يعمى عنده الحق وتتشوش الرؤى، فملّ من كل ذلك، وترك الاقتداء بالصالحين إلى الاتِّساء بالطالحين، وهذا من جرائر هذا الصنيع، ومن شؤمه على الناس أجمعين.

إن الحديث السلبي عن نابليون[١] في فرنسا يعد من الكبائر، لا لأن

---

(١) قائد حربي وإمبراطور فرنسا فيما بعد. ولد سنة ١٧٦٩بجزيرة كورسيكا، وفي سنة ١٧٨٤تخرّج في الكلية الحربية الملكية. انتصر في عدة معارك فبزغ نجمه كانتصاره على النمسا سنة ١٧٩٧ . وفي سنة ١٨٠٤تُوِّج إمبراطوراً على فرنسا، وفي السنة التي تليها تُوِّج ملكاً على إيطاليا، واستولى على بلاد أوروبية أخرى. وفي سنة ١٨١٤ نفي إلى جزيرة جنوب فرنسا إثر دخول القوات المتحالفة ضد فرنسا باريس. هرب من =

عظمته تمنع الحديث السلبي عنه لكن لأنه قد أصبح رمزاً لفرنسا وللفرنسيين، ولأنه صار جزءاً من تاريخ ذلك الشعب، فما بال بني قومنا لا يعون هذا ولا يفهمونه، ويقوم بعضهم بمحض إرادتهم بتحطيم سير الكبراء والعظماء والتقليل من شأنهم والتهوين من عظمتهم؟!

إن عواقب هذا الصنيع شنيعة، وأخطاره جسيمة، إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الأستاذ محمد كُرْد عَلي(١): «لا أعلم إن كانت أوروبة كلها تجري على مثال فرنسا في التنويه برجالها في كل فرصة، وتحتفل بأعيادهم وولاداتهم ووفياتهم ومواسمهم، وتغلو في إيراد مناقبهم بل في اختلاق مناقب ما كانت يوماً لهم ؛ فأهل الأدب يحتفلون بجماعتهم، وأهل العلم بعلمائهم، وأهل الحرب بقوّادهم، وأهل

= منفاه سنة ١٨١٥ليعود إلى فرنسا حاكماً لمدة مئة يوم ليُهزم في واترلو وينفى إلى جزيرة سانت هيلانة ليموت فيها سنة ١٨٢١.
كان من خطاياه العظمى ما صنعه في مصر إثر الحملة سنة ١٧٩٨، وما صنعه في فلسطين من قتل لآلاف الأسارى غدراً وخسة، انظر في كل ما سبق: «الحملة الفرنسية»: ١٠٨وما بعدها.

(١) محمد بن عبد الرزاق بن محمد، كُرْدعلي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤسسه، وصاحب مجلة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة، من كبار الكتّاب. ولد سنة١٢٩٣ بدمشق، وأصله من أكراد السليمانية ـ من أعمال الموصل ـ وتعلّم في المدرسة الرشدية، وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة. وأحسن التركية والفرنسية وتذوّق الفارسية، وحفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري، وتولى رئاسة تحرير عدد من المجلات والجرائد. هاجر إلى مصر وبقي فيها سنين، واتهم مرات بمعاداة جمعية الاتحاد والترقي وكاد يُقتل. ولي وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنسي لسورية. وكان من أصفى الناس سريرة وأطيبهم لمن أحبهم عِشرة وأحفظهم وداً. توفي بدمشق سنة ١٣٧٢ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٦/ ٢٠٢ ـ٢٠٣.

الدين بدعاة دينهم وقديسيهم، وأرباب السياسة بساستهم، ولا تخلو فرنسا يوماً من تذكُّر الموتى والإشادة بهم ورفع أقدارهم... ويريدون من ذلك ألا ينسوا رجالهم وأن يرددوا على الدوام ذكراهم...

أما المسلمون على الأكثر فانتهجوا نهجاً آخر: يَصِمون رجالهم بكل نقيصة، ويخترعون لهم مساوئ ليست فيهم، فإذا ماتوا سكتوا بعض السكوت عنهم[(١)]، ولا يتناولون بالنقمة واللعنة إلا عظماءهم في حياتهم، فما أكبرَ الفرق بين المغالين وأضدادهم.

المسلمون يتوخون أن يكون مَن يحوزون رضاهم بدون عيوب، وما عُهد أن أجمع قوم على تقريظ رجل خصوصاً مَن تولوا الأمور العامة...».

ثم ذكر الأستاذ حال نصارى الشام وكيف يغالون في رفع أقدار مَن نبه فيهم بعض النباهة بل إنهم أبرزوا بعض عوامهم وضعفائهم بالزور والتعدي، وقارن بين حالهم وحالنا...[(٢)].

الأسباب الباعثة على هذا التحطيم:

هناك جملة من الأسباب الباعثة على تحطيم القدوات وهدمها، والإقلال من شأنها، وهذه الأسباب بعضها ظاهر وبعضها خفي، أو بمعنى آخر بعض تلك الأسباب غُلِّف بغلاف الشرع المطهر وهو منها براء، وبعضها لضعف النفوس وغلبة الهوى عليها، فمن الأسباب الظاهرة المغلفة بغلاف الشرع:

---

(١) كان ذلك زمان الأستاذ لكن الآن تغيرت الأحوال إلى الأسوأ!!

(٢) «المذكرات»: ٣/ ٨٨٦ ـ ٨٨٧.

١ ـ تبيان الحق وإظهاره:

وهذه دعوى مجردة يعهد إليها كلّ مَن يريد تحطيم قدوة أوهدمه؛ إذ يتباكى على حال الناس، وضعف دينهم، ويظهر أن فلاناً وفلاناً ممن يهدم الشرع ويضعف سلطان الدين في النفوس، ويشيع قالة السوء عمن يريد تحت هذا الادعاء.

وقد يكون هذا الهادم صادقاً في نيته، مخلصاً في عمله هذا لكن كم من مريد للحق والخير فلم يصبهما، وكم من جاهل سعى لتلافي نقص فاتسع به الخرق على الراقع، فالحاصل أن مثل هذه الدعاوى لا يلتفت إليها إلا إن جاءت من عاقل معه برهان على ما يذهب إليه من نقد بنّاء مفيد.

٢ ـ بيان خطر أولئك على الناشئة:

وتحت هذه الدعوة المجردة من البرهان ومن التعقُّل يهدم من القدوات عدد كبير؛ ولو كان هذا الهادم صادقاً لا نبرى لمصدر الخطر الحقيقي ليهدمه على رؤوس أصحابه من علمانيين وماسونيين وأرباب صنائع الفحش والفجور والفسق، ومَن يتربص بهذه الأمة الدوائر، أما أن يعيش سنوات طويلة فلا تُسمع منه كلمة في هذا الباب ولا يُؤثر عنه جهاد لأولئك ثم ينبري لأهل الخير والصلاح ممن أخطأ في مسألة أو مسائل ليهدمهم ويحطمهم، فهذا قد ضلّ الإصلاح وحاد عنه ولبَّس عليه الشيطان أعظم تلبيس.

والعجيب أن بعض الناس المحطمين الهادمين يقسم بالله أن فلاناً وفلاناً أخطر على الأمة من اليهود والنصارى، وهذا المسكين قد أُتِيَ من قلة عقله، إذ لو عقل لما تفوّه بمثل ما تفوّه به.

ومن **الأسباب الخفية** التي قد تكون الأسباب الحقيقية الباعثة على هذا الصنيع:

١ ـ الحسد والحقد والغل:

وهو داء دفين، ومرض خفيّ، يسري في نفوس بعض الصالحين لما يرونه من إقبال الناس على غيرهم وانقطاعهم عنهم، وهو من أشد العوامل فتكاً في النفوس وأصعبها، وليس هو بأمر جديد بل هو قديم قدم البشرية، وما حادثة قابيل وهابيل ببعيدة عن اعتبار الصالحين، ولولا خوف التنغيص على القراء الكرام لسقت من الحوادث قديماً وحديثاً ما يبين هذا المرض حق التبيين، ولعل كثيراً من الأعمال الحاصلة اليوم في التحطيم والهدم منبعثة من داء الحسد الدفين والعياذ بالله.

٢ ـ الاستهانة والتحقير:

إن من الأسباب القوية لتدمير القدوات وتحطيمها هو الاستهانة بهم وبمصنفاتهم ونتاجهم، وعده كلا شيء، وهذا ناتج عن الغرور العلمي، وإغماض العين عن الإيجابيات والفوائد، وشغفها بالسلبيات والنقائص، وأسوق هاهنا كلاماً للأستاذ محمود شاكر رحمه الله تعالى[(١)] يبين فيه ـ في رأيه وظنه ـ سبب ابتداء هذه المشكلة فيوعزه إلى الأستاذ محمد عبده رحمه الله تعالى[(٢)] فيقول إنه كان في دروسه يذم

---

(١) أديب مصري مشهور، التحق بالجامعة المصرية ثم تنازع مع طه حسين بسبب بعض آرائه الإسلامية غير المقبولة، والتي جنح فيها إلى تقليد عدد من المستشرقين، فصدع الشيخ بالحق أمام طه حسين ثم ترك الجامعة، وعين بعد ذلك مدرساً في السعودية، ثم عاد إلى مصر. له العديد من المصنفات والتحقيقات التي أظهر فيها براعة فائقة في العربية والثقافة والتراث. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤١٧.

(٢) محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني مفتي الديار المصرية ومن كبار رجال التجديد في الإسلام، ولد في إحدى قرى الغربية بمصر سنة ١٢٦٦، وتعلّم بالجامع الأحمدي بطنطا ثم بالأزهر ثم تصوّف وتفلسف، وعمل في التعليم وكتب في =

«الكتب التي كان طلبة الأزهر يدرسونها، فتلقفوا عنه الطعن بالتسليم دون فحص أو نظر. وهذه الخصلة وحدها ليست من خصال أهل العلم إنما هي تشدُّق وثرثرة، كل امرئ قادر على أن يتبجّح بها ويتباهى، وقبل كل شيء فهي في حقيقتها صدٌّ صريح عن هذه الكتب يورث الازدراء، ويغري بالانصراف عما فيها، ويحمل على تحقير أصحابها.

ولم يقتصر ذم الشيخ عبده على كتب البلاغة وحدها[1] بل تناول الطعنُ الجارح كل الكتب التي تدرس في الأزهر على اختلاف أنواعها من بلاغة وفقه ونحو وبقية علوم العربية والدين، وذاع هذا الطعن، وتناقلته ألسنة المحيطين به من صغار طلبة الأزهر، وطلبة المدارس وغيرهم من الطوائف، فكان هذا أول صدع في تراث الأمة العربية الإسلامية، وأول دعوة لإسقاط تاريخ طويل من التأليف وما كتبه علماء الأمة المتأخرون إسقاطاً كاملاً، يتداوله الشباب بألسنتهم، مستقرَّاً في نفوسهم، وهم في غضارة الشباب لا يطيقون التمييز بين الخطأ والصواب... وأورثهم الاستهانة بها، والاستهانة داء وبيل يطمس الطرق المؤدية إلى العلم والفهم...

= الصحف، وتولى تحرير جريدة الوقائع المصرية، وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين، ولما احتل الإنكليز مصر ناوأهم فسجن ثم نفي سنة ١٢٩٩ إلى باريس فأنشأ مع أستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة العروة الوثقى وعاد إلى بيروت فمصر سنة ١٣٠٦فتولى منصب القضاء ثم جُعل مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم مفتياً للديار المصرية سنة١٣١٧ فاستمر إلى أن توفي بالإسكندرية سنة ١٣٢٣ رحمه الله تعالى. له عدة مصنفات، وهناك كلام مطول في نقد بعض أعماله، وتصرفاته، الله أعلم بما ثبت من ذلك. وانظر «الأعلام»: ٦/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(١) إنما قال الشيخ محمود شاكر هذا لأن سياق حديثه إنما هو في البلاغة وبعض كتبها التي طعن فيها الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا رحمهم الله جميعاً.

إنما قصصت هذا التاريخ الطويل لأنه تاريخ لداء الاستهانة وقلة المبالاة الذي سرى في الناس، ولأنه يكشف لنا بوضوح أسباب فساد حياتنا الأدبية التي نعيشها اليوم، وهي حياة فاسدة. . .

آه، لقد مضى على الأمة الإسلامية نحوٌ من ثلاثة عشر قرناً لم نسمع في خلالها دعوة تحرض طلبة العلم على إسقاط كتب برمتها من حسابهم، ولذلك قلت: إن الذي جرى على لسان الشيخ محمد عبده في حركته مع شيوخ الأزهر طلباً لإصلاح التعليم في الأزهر كان أولَ صدع في تراث الأمة العربية الإسلامية. . .[1].

(١) «أدب الاختلاف» ١٦١ ـ ١٦٣، ونقله المصنف حفظه الله تعالى عن مقدمة الأستاذ محمود شاكر لأسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ١٧ـ ٢٩.

وصف بعض فضلاء المعاصرين هذا العمل المهين

قد تصدّى بعض فضلاء المعاصرين شارحاً عمل هذه الفئة الظالمة، وعدوانها على القدوات، ومحاولتها تحطيمها بكل ما استطاعت من قوة وجاه، وقد قاموا بهذه المهمة إيماناً منهم بقسوة الحملة وظلمها، وقياماً بما ينبغي عليهم من نصرة الحق وإظهاره وطمس الباطل وهدمه، وكان من أولئك: الشيخ الفاضل بكر أبو زيد[١] ـ وفّقه الله تعالى ـ إذ يصف عمل هذه الفئة الظالمة فيقول: «اتخذوا «التصنيف بالتجريح» دِيناً ودَيْدناً، فصاروا إلْباً على أقرانهم من أهل السنة، وحرباً على رؤوسهم، وعظمائهم، يُلحقونهم الأوصافَ المرذولة، وينبزونهم بالألقاب المستشنعة المهزولة، حتى بلغت بهم الحال أن فاهوا بقولتهم عن إخوانهم في الاعتقاد والسنة، والأثر: «هم أضر من اليهود والنصارى» و«فلان زنديق»؟؟

وتَعامَوا عن كُلِّ ما يَجتاب ديار المسلمين، ويخترق آفاقهم، من الكفر، والشرك، والزندقة، والإلحاد، وفتح سبل الإفساد والفساد، وما يَفِدُ في كل صباح ومساء من مغريات وشهوات، وأدواء وشبهات،

---

(١) رئيس المجمع الفقهي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، ووكيل وزارة العدل.

تُنْتِج تكفير الأمة، وتفسيقها، وإخراجها نشأً آخر منسلخاً من دينه، وخلقه»[١].

وهذا الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق[٢] ـ حفظه الله تعالى ـ يصف عمل هذه الفئة الظالمة في هدمها للقدوات وتحطيمها إياها فيقول: «إنه مازال المسلمون إلى يومنا هذا يطلع عليهم بين الحين والآخر مَن يزعم نصر الدين وقول كلمة الحق فيترك أهل الأوثان والشرك والإباحية والكفر ويعمل قلمه ولسانه في المسلمين، بل وجدنا منهم من لا هم له إلا مشاغلة الدعاة إلى الله والتعرُّض لهم بالسب والتشهير وتأليف الرسائل في بيان مثالبهم في زعمهم واتهامهم بالمداهنة تارة، والركون إلى الظالمين تارة، وفعل بعض المعاصي تارة، والإفتاء بما يخالف آراءهم في الدين تارة، ولمثل هذه الأمور ـ التي يرونها مخالفات وما هي بمخالفات ـ يستحلُّون أعراضهم وينتهكون حرماتهم ويفتشون على أسرارهم ولا يجدون لهم ديناً في الأرض إلا تفريق جماعتهم وتمزيق وحدتهم وملء صدور الناس بكراهيتهم ومحاولة فض الناس عنهم.

وهذا من أكبر الآثام ومن أكبر النواقص لأصل الإيمان الأصيل وهو أصل الولاء، ولو فقه هؤلاء الدين لوجب عليهم محبة إخوانهم في الإسلام والدعاء لهم بظهر الغيب، وشد أزرهم والنصح لهم،

(١) «تصنيف الناس بين الظن واليقين»: ٣٩.

(٢) أحد فضلاء المشايخ المصريين المقيمين في الكويت منذ مدة طويلة، ودرس في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وهو صاحب تآليف معروفة في الساحة متداولة، وفّقه الله تعالى.

وبذل الأمر بالمعروف لهم بالتي هي أحسن، ولكن الحقد والبغضاء ملأت صدورهم، ونفخ الشيطان في قلوبهم فتراهم يرون أكبر المنكرات فلا يأبهون ويشاهدون أعظم الطواغيت فلا يغضبون ولكنهم يرون الهفوات والصغائر على إخوان العقيدة والدين، وأهل الدعوة والجهاد فتحمر أنوفهم وتزبد أفواههم ويعددون في كل مجلس مخالفتهم» انتهى[(١)].

والعجيب معشر القراء الكرام أن هذا التحطيم والهدم يتم من جانب واحد، في «محكمة من أغرب محاكم التاريخ؛ حيث ينتصب هؤلاء خصوماً وقضاة وشهوداً ومزكين، ويملكون مبنى المحكمة ويضعون أحكامها، وينفذون الأحكام من دون أن يسمعوا من المتهم كلمة دفاع واحدة؛ لأنه مدان في كل الأحوال»[(٢)].

قال الأستاذ محمد عوّامة: «إن واقعنا المنحرف عن خط سلفنا وأئمتنا مؤلم جدَّاً، ولا يخفى ذلك على أحد تصل يده إلى كتاب، أو يدخل مكتبة من مكتبات الأسواق، لأنه بمجرد دخوله يرى العناوين الكثيرة للكتب التي فيها الردود بحق أو باطل، بأدب أو بقلة أدب، وربما وجد في الكتيب الواحد ثَلْباً لأعداد هائلة من العلماء.

وأقبح من هذا أنك ترى مَن لا يسوغ له شرعاً أن يَخُطَّ كلمة واحدة في دين الله تعالى يرد على الإمام الفلاني، ويقوِّم عقيدة الإمام الفلاني.

ولو أن إنساناً متفرغاً قام بإحصاء ماهو موجود في المكتبات من

---

(١) الولاء والبراء ص٣٢ نقلاً عن «رسائل الإخاء»: ١٨.

(٢) «المفردات»: ٢.

هذا القبيل منذ عشر سنوات إلى يومنا هذا لجمع رُكاماً يفرح به أعداء الله والإسلام من المستشرقين والمستغربين، وإنا لله وإنا إليه راجعون. . . »[١].

(١) «أدب الاختلاف»: ١٤٢.

صور على تحطيم القدوات والإقلال من شأنهم

سأورد بعض الصور على تحطيم القدوات والإقلال من شأنهم، لكني سأحرص على ذكر صور تورط فيها عدد من المعاصرين، ولن أذكر شيئاً عما جرى من بعض مَن أقدم على مثل هذا في الزمن الماضي وذلك لأسباب منها:

أولاً: أني أريد حفظ صورة السلف في أذهان القراء فلا تهتز؛ وذلك لأن من تورط منهم في هذا الصنيع كانوا قلة مرذولاً عملها، غير مرضي عنه.

ثانياً: لأني أريد أن أعالج ما يقع في العصر الحاضر فلا أرى حاجة لذكر ما جرى في غابر الدهر وسالفه.

والأمر الثالث: المهم هو أن ما يجري في الزمان الحاضر فاق بكل المقاييس ما جرى في كل العصور الماضية، فمَن اطَّلع على الدواهي العظام لا يضره أن تحجب عنه صور الحوادث الصغار مما يجب أن يُطوى فلا يُروى، ورحم الله امرأً ترحَّم عليهم وسكت عما جرى بينهم، والله أعلم.

هذا وإني سوف أضرب صفحاً عن ذكر أسماء مَن تورط في تحطيم القدوات وتخصّص في هدمها؛ وذلك لأن هذا لا يعود على الأمة

بحاجة إلى مزيد من هذا الإيغار، ولأنه إن ذكر موطن العبرة والفائدة فأي حاجة لذكر أسماء مَن قام بذلك الصنيع الخطير؟ ولعل أولئك يتوبون إلى الله تعالى من شر ما صنعوا؛ فإن المقام بين يدَي الله تعالى عظيم، وأعراض المسلمين بل صفوتهم ليست بالأمر الهين ولا اليسير.

١ــ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى[1]:

هو من أعلام أهل السنة والجماعة، ومن كبار المنافحين عن الإسلام الذابِّين عنه، وأظن أن هذا الأمر يكاد يكون متفقاً عليه، لكن أَبَتْ جماعة محطمي القدوات إلا أن يقولوا: «لا تؤخذ منه أحكام الولاء والبراء»[2] وذلك لكلامه الحسن في بعض الصوفية الأوائل ومدحه بعضهم. وقال آخر: «وقد سئمت من تتبع مخازي هذا الرجل المسكين الذي ضاعت مواهبه في شتى البدع»[3].

ويقول: «بل هو وارث علوم صابئة حَرّان حقّاً»[4].

ويقول: «مَن اتخذه إماماً إنما اتخذه إماماً في الزيغ والشذوذ»[4].

ماذا بعد هذا؟! وما الذي ترجوه الأمة من هذا التحطيم المتعمد لقدواتها وأعلامها.

---

(١) شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيميّة ـ نسبة لجدته ـ سيرته مشهورة وكتبه ذائعة نافعة. توفي سنة ٧٢٨ رحمه الله تعالى. انظر سيرته في «الدرر الكامنة»: ١/ ١٥٤ ـ ١٧٠.

(٢) «المفردات»: ٦.

(٣) «براءة أهل السنة»: ٢٢.

(٤) المصدر السابق: ٢٤.

٢ ـ الإمام ابن قيم الجوزية[١] رحمه الله تعالى:

وهو إمام ضخم من أئمة أهل السنة والجماعة، وآثاره العقدية النافعة في كتبه أعظم من أن يُدلَّ عليها، لكن انظروا ماذا قيل فيه من بعض مَن نذر نفسه لتحطيم قدوات الأمة:

زائغ، مبتدع، كذاب، وقح، بليد، غبي، جاهل، ضال مضل، خارجي، ملعون، كافر!!! إي والله: كافر!!!

ثم قال: بلغ في كفره مبلغاً لا يجوز السكوت عليه، ولا يحسن لمؤمن أن يغضّ عنه ولا أن يتساهل فيه[٢]!!

وقال آخر: «فيه تصوُّف وابتداع من هذا الجانب، وخصوصاً كتاب «مدارج السالكين» و «كتاب الروح»[٣].

فأي تحطيم للقدوات يجري في هذه الأمة المبتلاة بهؤلاء.

٣ـ الحافظ ابن حجر العسقلاني[٤] رحمه الله تعالى:

وهو علم من أعلام الحديث الشريف، وأمير للمؤمنين فيه، وقد

---

(١) الإمام المشهور محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعيّ الدمشقي، شمس الدين الحنبليّ. ولد سنة ٦٩١، وتوفي سنة ٧٥١، رحمه الله تعالى. كان واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، وله عدد من المصنفات النافعة. انظر «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١ ـ ٢٣.

(٢) «براءة أهل السنة»: ١٧ ـ ١٩ ناقلاً عن «السيف الصقيل»و «تبديد الظلام المخيم».

(٣) «المفردات»: ٦.

(٤) أحمد بن علي بن محمد، الأستاذ الإمام أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري ثم القاهري الشافعي، ويعرف بـ(ابن حجر) وهو لقب لبعض آبائه. ولد سنة ٧٧٣ بمصر العتيقة، فحفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجد في الفنون حتى بلغ الغاية، وتولى وظائف عديدة، وله مصنفات نافعة ومشهورة. توفي بالقاهرة سنة ٨٥٢ رحمه الله تعالى. انظر «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦ ـ ٤٠.

تصدّى لشرح كتاب عظيم ألا وهو صحيح الإمام البخاري[١] فأفنى فيه أكثر من ثلاثين سنة من عمره المبارك، وقد عاش حياته ذابّاً عن السنة، مبيناً لها، عاملاً بها، نحسبه كذلك والله تعالى حسيبه، فيأتي رجل مطموس على فهمه من أهل هذا العصر الذي نُكب بأمثال هؤلاء فيقول عن الإمام ابن حجر قولاً شنيعاً عجيباً: «قال ابن حجر في شرح البخاريّ ـ يسر الله من أهل السنة مَن يشرحه ـ. . .»[٢].

ما هذا؟! وهل ابن حجر في حِجْر محجور عن أهل السنة حتى يُخرج من جمهورهم؟ ولمَن ينتمي ـ رحمه الله تعالى ـ إن لم ينتمِ لأهل السنة؟! أعوذ بالله من هذا الضلال.

إنا إن أردنا الحديث عن أهل السنة والجماعة في مقابل فرق الضلال كالرافضة وأمثالهم فإن ابن حجر علم من أعلام أهل السنة والجماعة ورمز من رموزهم، والله الهادي والعاصم من الانجرار إلى الفتن العظام.

وهذا آخر يقول عن ابن حجر: «جهمي أشعري، ليس من أهل السنة والجماعة، لديه أخطاء أساسية في العقيدة وتوحيد الألوهية»[٣].

والكلام في هذا الأمر ورده كالكلام في سابقه.

وثالث «غمز الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ بفعلة شنعاء

---

(١) الإمام الحافظ العَلَم محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجُعْفي ـ بالولاء ـ توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٥٦ بقرية ببخارى تسمى «خَرْتنك». انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ٣٩١ ـ ٤٧١.

(٢) «الإعلام بحرمة أهل الإسلام» ص٣١٢، وقد نقل صاحب الكتاب عن «عقيدة أبي حاتم»: ١٣١.

(٣) «المفردات»: ٦.

وكذبة صلعاء، هي من صريح القذف عند الفقهاء»[١] نعوذ بالله تعالى من هذا الإفك والضلال.

٤ ـــ الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى[٢]:

هذا الرجل قد وجهت إليه سهام مغرضة واتهم في عقيدته بغير حق، كيف لا وهو القائل: «العقيدة أساس العمل»[٣].

وهو القائل أيضاً: «ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني[٤] إلى الله تبارك و تعالى أسلم وأولى بالاتباع حسماً لمادة التأويل والتعطيل فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان وأثلج صدره ببرد اليقين فلا تعدل به بديلاً...»[٥] فماذا بعد هذا يا عباد الله؟!!

وقد قال أيضاً: «وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل»[٦].

---

(١) «براءة أهل السنة»: ٢٩.

(٢) حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. ولد سنة ١٣٢٤ في المحمودية ـ قرب الإسكندرية ـ ودرس بدار العلوم بالقاهرة، واشتغل بالتدريس وتنقّل في بعض البلاد متعرفاً إلى أهلها مختبراً طباعهم وعاداتهم. أنشأ دعوته في الإسماعيلية، ثم انتقل إلى القاهرة. نظم أمر أتباعه، وشاركوا في حرب فلسطين مجاهدين، ثم اصطدمت بهم الدوائر الاستخباراتية العالمية فسجنتهم وقتل الإمام سنة ١٣٦٨ رحمه الله تعالى في حادثة غادرة لئيمة. له بعض الرسائل النافعة وكثير من الآثار الباقية. وانظر «الأعلام»: ٢/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٣) «رسائل الإمام البنا»: ٢٧٠.

(٤) أي: العلم بكيفيتها وليس بمعانيها كما ذهب إليه بعض المغرضين في اتهاماتهم.

(٥) «رسائل الإمام البنا»: ٣٣٠.

(٦) المصدر السابق: ٢٦٩.

وقال أيضاً: «كل بدعة في دين الله لا أصل لها ـ استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو النقص منه ـ ضلالة تجب محاربتها . . . »[(١)] .

وقال أيضاً: «لكن الاستعانة بالمقبورين أيّاً كانوا، ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بُعد، والنذر لهم، وتشييد القبور، وإضاءتها، والتمسُّح بها، والحلف بغير الله، وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سدَّاً للذريعة»[(٢)] .

ـ وهذا اتهام آخر عجيب لا أدري وجهه، يقول فيه صاحبه ناعياً على البنا دعوته للجهاد:

«قلنا: أي جهاد الذي دعا إليه البنا إذا كان قد أقرّ الشرك الأكبر المخرج من الملة»[(٣)] .

كيف لعاقل أن يصدق أن البنا أقر الشرك الأكبر؟! إن هذا لشيء عجيب! .

ثم يتّهم البنا بأنه صوفيّ وأنه بهذا قد ثُلِم توحيده، وأتى ببعض ما ظنه شواهد على هذا!!

هذا ولقد انبرى شيخ فاضل[(٤)] للدفاع عن البنا فقال لهذا المتهم: «فأنا أنصحك أيها الشيخ أن تصون لسانك وقلمك عن الوقيعة في هذا الداعية الذي نفع الله به» .

---

(١) المصدر السابق: ٢٧٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) «المورد العذب الزلال»: ١٤٣ .

(٤) هو الشيخ عبد الله بن جبرين حفظه الله تعالى .

فما كان منه إلا أن شنّ عليه غارة عظيمة، وعدّه صادًّاً عن سبيل الله بهذه النصيحة، وعدّه خاذلاً للحق، متظاهراً مع أهل الباطل، ثم اتهمه بأنه بدفاعه عن البنا قد خدش توحيده!!! وقدح فيه، وأمره بالتوبة، ثم أفحش القول في البنا باتهامه أنه فعل الشرك الأكبر وأقر فاعليه عليه[١].

وكل تلك الغارة الهائلة بسبب أمور في التصوُّف ابتدأ بها البنا حياته مثل الكثرة الكاثرة من صالحي العالم الإسلامي الذين يحيط بهم التصوُّف من كل جوانبهم[٢]، لكن هذا المتّهم لم ينظر في أقوال البنا في الصوفية حيث قال بعد كلام عن الصوفية الأولى مادحاً لها ـ كما مدحها شيخا الإسلام من قبل: ابن تيمية وابن القيم ـ: «لكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حدود علم السلوك والتربية، ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيراً لها و للناس، ولكنها جاوزت ذلك بعد العصور الأولى إلى تحليل الأذواق والمواجد، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها، فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأي والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوُّف والدعوة إلى الزهد والتقشُّف... وأصبح كل ما يكتب أو يقال في هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين في دين الله والحريصين على صفاته ونقائه...».

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر لفهم هذه المسألة بالتفصيل ولإعذار مَن نشأ في العالم الإسلامي محاطاً به التصوف من كل جانب سبيلاً أوحد في كثير من الأحيان خاصة في زمن البنا وقبله. انظر كتاب «العاطفة الإيمانية وأهميتها في الأعمال الإسلامية» لواضع هذه الرسالة ص٧٦ ـ ٩٥.

فهل بعد هذا الإيضاح والبيان مزيد؟!

ـ وجاء شيخ آخر ليتهم البنا اتهاماً عجيباً مؤداه أنه كاذب في دعواه أنه يزعم إرسال عشرة آلاف متطوع للجهاد في فلسطين سنة ١٣٦٧ ـ ١٩٤٨، فيقول: «يا حسن البنا لا تدجّل على الناس، وما أرسلت أحداً. . . كله كذب»[١].

وهذه التهمة عجيبة؛ إذ أن القاصي والداني يعلم ما للبنا من آثار جهادية في فلسطين، والكتب مليئة بالوثائق الدالة على ذلك، فأي تحطيم للقدوات يجري في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة؟!

وفي النهاية أقرر أن البنا ليس بمعصوم، وأنه قد أخطأ في أقوال وأعمال، لكن ذلك الخطأ لا يخرجه عن كونه قدوة يُقتدى بها وعلماً من أعلام الإسلام في العصر الحديث، والله تعالى أعلم[٢].

٥ ــ الأستاذ سيد قطب[٣] رحمه الله تعالى:

هو أديب أريب، ومفكر باهر، وضع من المصنفات ما يعجز معه

---

(١) نص من شريط مسجَّل في محاضرة أقيمت في صبيا في منطقة جيزان، جنوب المملكة العربية السعودية.

(٢) قد زكّى الشَّيخ عدد من أئمة السلفيين في العصر الحديث مثل الشيخ ابن جبرين كما مرّ سابقاً، ومثل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الذي أهدى إليه كتابين له: «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله» و «القواعد الحسان لتفسير القرآن» وكتب عليه إهداء لفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا، وغيرهما من الرجال المنصفين.

(٣) سيد بن قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، ولد سنة ١٣٢٤بقرية «موشا» في أسيوط. تخرّج في كلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي «الرسالة» و «الثقافة» وعُيِّن مدرساً للعربية فموظفاً في ديوان وزارة المعارف ثم مراقباً فنيَّاً بالوزارة. أُوفد في بعثة لدراسة برامج التعليم في أمريكا ثلاث =

التاريخ عن نسيانه أو تجاوزه، وكان لها الأثر الباهر في توجيه الشباب نحو الإسلام في زمن عزّ فيه النصير وقلّ المعين، وانتشرت الدعاوى الجاهلية والمذاهب الباطلة الفاسدة التي حصل لها من الرواج قدر بقي فيه الحليم حيران، في تلك الحقبة المظلمة برزت كتب الأستاذ سيد تبشر بعظمة الإسلام وأنه الدين الباقي على مَرِّ الزمان، وأنه الصالح لكل زمان ومكان، وفضح مخططات اليهود والنصارى أيما فضح، وفسر القرآن على وجه لم يكن مثله من قبل.

هذا الرجل الذي نذر حياته للإسلام ووقفها عليه، ومات شهيداً ـ نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله تعالى ـ حيث دفع من دمه ثمناً لنصرة دين الله تعالى، هذا الرجل استهدفته سهام محطمي القدوات، فلم يكفِ أن الحملات الظالمة وُجهت إليه من أوكار العلمانية والحداثية وكل ناعق مبطل حتى جاء أولو القربى، فوجَّهوا سهامهم إليه، وتناوشوه من كل جانب:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهنّد

وإن تعجب فعجبٌ قولهم عن هذا الأستاذ الذي قَلّما يسمح له الزمان بنظير في عصرنا:

= سنوات. انضم إلى الإخوان المسلمين فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه إلى أن صدر الأمر بإعدامه فأُعدم رحمه الله تعالى سنة١٣٨٧، له مصنفات جليلة رائعة، وفي بعضها قليل من المؤاخذات بسبب النشأة الأدبية السابقة. وما أحسن كلمة الأستاذ علال الفاسي رحمه الله تعالى لما حصلت نكبة سنة ١٣٨٧هـ: ما كان الله لينصر حرباً يقودها قاتل سيد قطب. وانظر «الأعلام»: ٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨.

«سيد قطب رافضيّ[١] والله، سبّ الصحابة أكثر من الروافض، وهو أشعري[٢]، ومعتزلي[٣]، وجهميّ[٤]، وصوفي»[٥].

فانظر أخي إلى تعريف هذه المذاهب ـ التي وُصم الأستاذ سيد بالانتساب إليها ـ في الحاشية، ثم ليَطُلْ تعجبك من هذا الظلم الصارخ.

ثم امتد تطاولهم إلى هذا القول: «وهو ما يعرف معنى لا إله إلا الله، لا إله إلا الله عنده تمثل وحدة الوجود[٦]، وأنه أجهل الناس بمعنى لا إله إلا الله»[٧].

---

(١) الرافضة: أصحاب مذهب خبيث قوامه ادعاء الانتساب إلى أئمة آل البيت وادعاء عصمتهم، والتبرؤ من أكثر الصحابة، وتوجيه السهام إلى الشيخين العظيمين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وغير ذلك من الخبائث، انظرها في «الفرق بين الفرق»: ٣٨ ـ ٤٢.

(٢) الأشعرية مذهب عقدي يميل أصحابه إلى تأويل عدد من الصفات، ولهم في مذهبهم قواعد أخرى. انظر فيه «الملل والنحل»: ١/ ٩٤.

(٣) المعتزلة: فرقة قامت على أصول خمسة وهي: العدل، والتوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد. وكل هذه الأصول قد خالفوا فيها أهل السنة والجماعة، وفيها شرح يطول. انظر «الملل والنحل»: ١/ ٤١ وما بعده.

(٤) هم أصحاب جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، وله كلام في الأسماء والصفات ساقط، وقواعد أخرى انظرها في المصدر السابق: ١/ ٨٦.

(٥) «المجهر»: ١٢.

(٦) وحدة الوجود: مذهب باطل لبعض غلاة الصوفية المتوسطين، والمتأخرين ذهبوا فيه إلى أنه ليس هناك موجود إلا الله، وما هذه الظواهر التي نراها إلا مظاهر لحقيقة واحدة هي الحقيقة الإلهية. انظر للتفصيل: «الفكر الصوفي» للأستاذ عبد الرحمن عبد الخالق: ٦٩، «ومظاهر الانحراف العقدية عند الصوفية» ١/ ٢٣٩ ـ ٢٩٨، للأستاذ إدريس محمود إدريس.

(٧) «المجهر»: ١٢.

سبحان الله: كيف يوصم رجل بهذا وهو قد قدّم حياته ثمناً لتعريف الناس بلا إله إلا الله، لكنه الظلم الفادح، والخصومة العمياء التي لا تعود تبصر الحق فتفيء إليه.

ثم قال المتطاول كلاماً عجيباً: «سيد قطب الذي جمع كل البدع، ما ترك بدعة إلا ودوَّنها في كتبه»[١].

ثم بلغ المتطاول الغاية حيث اتهم الأستاذ سيد رحمه الله بأنه خطّط للنسف والتدمير[٢]، وهو الاتهام نفسه الذي ألصقه به أعداؤه ممن يكرهون الإسلام وأهله، فهل يعقل أن يقوم رجل مسلم ملتزم بالإسلام ليردد هذه الدعاوى الباطلة؟!

وأقول ـ والله تعالى أعلم ـ إن مئات الملايين الذين استفادوا من الأستاذ سيد وعلمه أكبر شاهد على عظمة تلك الكتب وجمال تلك الأفكار وثباتها وأصالتها، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ولا يعني كل ذلك أن الأستاذ كان مبرَّأً من العيوب والأخطاء؛ إذ لم يكن ذلك لبشر إلا للرسل والأنبياء، لكنه بشر يخطئ ويصيب، وأرجو أن يكون صوابه أكثر من خطئه رحمه الله تعالى بل أرجو أن تكون أخطاؤه قطرة في بحر حسناته، والله أعلم[٣].

هذا غيض من فيض، وقطرة من بحر خضم، أوردتها ليكون فيها عبرة للمعتبر، وعظة للمذكِّر، وما أردت أن أكدر بها الخاطر،

---

(١) «المجهر»: الملحق: ٤.

(٢) المصدر السابق: ٦.

(٣) سيأتي دفاع الشيخ بكر أبو زيد لاحقاً عن الأستاذ سيد قطب.

ولا أفرّق بها ما اجتمع من الشمل، لكني أردت بيان واقعنا الذي لن يتغير حتى نضع أيدينا على جرحنا، ونعلم عللنا وأمراضنا التي تنهش في جسد الأمة[١].

كلام بعض المعاصرين في الذب عن بعض القدوات:

كان لبعض المعاصرين كلام حسن في الذب عن القدوات، والدفاع عن بعض ما يتوهم أنهم أخطؤوا فيه، وكلام المعاصرين أوقع في نفوس الكثير من كلام القدامى وذلك لأن لبعض المعاصرين صورة عظيمة في النفوس وصولة، ولأن كثير من الناس لا يكاد يقبل من أحد كائناً مَن كان إلا من أولئك أو بعضهم، ولأن الحديث الحاضر محبَّب إلى النفوس قريب منها، فمن تلك الأقوال الجليلة في الذب عن القدوات والاعتذار لهم:

١ ـ كلام عدد من المعاصرين في الدفاع عن الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ الذي يتعرّض الآن لحملة قاسية ظالمة، وقد قيلت فيه أقوال عجيبة، سقت عدداً منها آنفاً.

وإليك أخي القارئ الكريم نصّاً نفسياً لفضيلة الشيخ بكر أبو زيد ـ حفظه الله تعالى ـ يدافع فيه عن الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى حيث يتعرض في هذا الوقت إلى حملة مغرضة عجيبة تستهدف

---

(١) لقد تركت حديثاً للقوم طويلاً محطماً هادماً لقدوات كثيرين منهم: النووي، وعز الدين بن عبد السلام، والذهبي، وابن الجوزي، ومحمد بن عبد الوهاب، والمودودي، والدوسري، وابن جبرين، وابن باز، وغيرهم كثير خِيض في أعراضهم بغير حق، ونهشهم المتخصصون في التحطيم والهدم، وإنما أوردت أولئك الخمسة مثالاً للسابق واللاحق، والله المستعان.

تحطيم الرجل تماماً وهدم مكانته في نفوس الشباب. وقد أرسل إليه أحد المشايخ كتاباً يطلب منه أن يقرظه، والكتاب خصص للوقيعة في الأستاذ سيد وهدمه، فأرسل إليه الشيخ الرد التالي: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد: فأشير إلى رغبتكم قراءة الكتاب المرفق «...» هل من ملاحظات عليه، ثم هذه الملاحظات هل تقضي على هذا المشروع فيطوى ولا يروى، أم هي مما يمكن تعديلها فيترشح الكتاب بعد الطبع والنشر ويكون ذخيرة لكم في الأخرى، بصيرة لمن شاء الله من عباده في الدنيا، لهذا أبدي ما يلي:

١ ـ نظرت في أول صفحة من فهرس الموضوعات فوجدتها عناوين قد جمعت في سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ أصول الكفر والإلحاد والزندقة: القول بوحدة الوجود، القول بخلق القرآن، يجوز لغير الله أن يشرع، غلوه في تعظيم صفات الله تعالى، لا يقبل الأحاديث المتواترة، يشكك في أمور العقيدة التي يجب الجزم بها، يكفر المجتمعات... إلى آخر تلك العناوين التي تقشعر منها جلود المؤمنين، وأسفت على أحوال علماء المسلمين في الأقطار الذين لم ينبهوا على هذه الموبقات، وكيف الجمع بين هذا وبين انتشار كتبه في الآفاق انتشار الشمس، وعامتهم يستفيدون منها، حتى أنت في بعض ما كتبت، عند هذا أخذت بالمطابقة بين العنوان والموضوع، فوجدت الخبر يكذبه الخُبْر[1]، ونهايتها بالجملة عناوين استفزازية تجذب القارئ العادي إلى الوقيعة في سيد ـ رحمه الله ـ وإني أكره لي ولكم

(١) أي العلم بالشيء، انظر «لسان العرب» خ ب ر.

ولكل مسلم مواطن الإثم والجناح، وإن من الغبن الفاحش إهداء الإنسان حسناته إلى مَن يعتقد بغضه وعداوته.

٢ ـ نظرت فوجدت هذا الكتاب يفتقد أصول البحث العلمي: الحيدة العلمية، منهج النقد، أمانة النقل والعلم، عدم هضم الحق.

أما أدب الحوار وسمو الأسلوب ورصانة العرض فلا تمت إلى الكتاب بهاجس، وإليك الدليل:

أولاً: رأيت الاعتماد في النقل من كتب سيد ـ رحمه الله تعالى ـ من طبعات سابقة مثل «الظلال» و «العدالة الاجتماعية» مع علمكم كما في حاشية ص٢٩ وغيرها، أن لها طبعات معدلة لاحقة، والواجب حسب أصول النقد والأمانة العلمية، تسليط النقد ـ إن كان ـ على النص من الطبعة الأخيرة لكل كتاب، لأن ما فيها من تعديل ينسخ ما في سابقتها، وهذا غير خافٍ إن شاء الله تعالى على معلوماتكم الأولية، لكن لعلها غلطة طالب حضر لكم المعلومات ولما يعرف هذا، وغير خاف لما لهذا من نظائر لدى أهل العلم، فمثلاً كتاب «الروح» لابن القيم لما رأى بعضهم فيه ما رأى قال: لعله في أول حياته، وهكذا في مواطن لغيره، وكتاب «العدالة الاجتماعية» هو أول ما ألّفه في الإسلاميات، والله المستعان.

ثانياً: لقد اقشعر جلدي حينما قرأت في فهرس هذا الكتاب قولكم: «سيد قطب يجوز لغير الله أن يشرع» فهرعت إليها قبل كل شيء فرأيت الكلام بمجموعه نقلاً واحداً لسطور عديدة من كتابه «العدالة الاجتماعية» وكلامه لا يفيد هذا العنوان الاستفزازي، ولنفرض أن فيه عبارة موهمة أو مطلقة، فكيف نحولها إلى مؤاخذة

مكفرة، تنسف ما بنى عليه سيد ـ رحمه الله ـ حياته ووظف له قلمه من الدعوة إلى توحيد الله تعالى في الحكم والتشريع ورفض سن القوانين الوضعية والوقوف في وجوه الفعلة لذلك، إن الله يحب العدل والإنصاف في كل شيء ولا أراك إن شاء الله تعالى إلا في أَوْبة[١] إلى العدل والإنصاف.

ثالثاً: ومن العناوين الاستفزازية قولكم: «قول سيد قطب بوحدة الوجود».

إن سيداً ـ رحمه الله ـ قال كلاماً متشابهاً حَلَّق فيه بالأسلوب في تفسير سورتَي الحديد والإخلاص وقد اعتمد عليه بنسبة القول بوحدة الوجود إليه، وأحسنتم حينما نقلتم قوله في تفسير سورة البقرة من رده الواضح الصريح لفكرة وحدة الوجود، ومنه قوله: «ومن هنا تنتفي من التفكير الإسلامي الصحيح فكرة وحدة الوجود» وأزيدكم أن في كتابه «مقومات التصور الإسلامي» ردًّاً شافياً على القائلين بوحدة الوجود، لهذا فنحن نقول: غفر الله لسيد كلامه المتشابه الذي جنح فيه بأسلوب وسع فيه العبارة، والمتشابه لا يقاوم النص الصريح القاطع من كلامه، لهذا أرجو المبادرة إلى شطب هذا التكفير الضمني لسيد ـ رحمه الله تعالى ـ وإني مشفق عليكم.

رابعاً: وهنا أقول لجنابكم الكريم بكل وضوح إنك تحت هذه العناوين «مخالفته في تفسير لا إله إلا الله للعلماء وأهل اللغة وعدم وضوح الربوبية والألوهية عند سيد»:

---

(١) أي: رجوع.

أقول أيها المحب الحبيب: لقد نسفت بلا تثبُّت جميع ما قرره سيد، رحمه الله تعالى ـ من معالم التوحيد ومقتضياته ولوازمه التي تحتل السمة البارزة في حياته الطويلة، فجميع ما ذكرته يلغيه كلمة واحدة، وهي أن توحيد الله في الحكم والتشريع من مقتضيات كلمة التوحيد، وسيد ـ رحمه الله تعالى، ركز على هذا كثيراً لما رأى من هذه الجرأة الفاجرة على إلغاء تحكيم شرع الله من القضاء وغيره وإحلال القوانين الوضعية بدلاً عنها ولا شك أن هذه جرأة عظيمة ما عهدتها الأمة الإسلامية في مشوارها الطويل قبل عام ١٣٤٢هـ.

خامساً: ومن عناوين الفهرس: «قول سيد بخلق القرآن وأن كلام الله عبارة عن الإرادة»، لما رجعت إلى الصفحات المذكورة لم أجد حرفاً واحداً يصرح فيه سيد رحمه الله تعالى بهذا اللفظ «القرآن مخلوق» كيف يكون هذا الاستسهال للرمي بهذه المكفرات، إن نهاية ما رأيت له تمدُّد في الأسلوب كقوله: «ولكنهم لا يملكون أن يؤلفوا منها ـ أي الحروف المقطَّعة ـ مثل هذا الكتاب لأنه من صنع الله لا من صنع الناس»، وهي عبارة لا شك في خطئها ولكن هل نحكم من خلالها أن سيداً يقول بهذه المقولة الكفرية «خلق القرآن» اللهم إني لا أستطيع تحمُّل عهدة ذلك، لقد ذكرني هذا بقول نحوه للشيخ محمد عبد الخالق عُضَيمة[1] رحمه الله

(١) عالم جليل في النحو والصرف والتحقيق، ولد سنة ١٣٢٨ وابتدأ دراسته بمعهد طنطا الأزهريّ، وتخرّج في كلية اللغة العربية بالأزهر وعمل مدرساً فيها. ابتعث عدة مرات إلى عدة جامعات ومراكز عربية. أصيب ببصره في منتصف عمره. ألّف مصنفات كان أحسنها «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» في أحد عشر مجلداً مكث يصنفه خمساً وثلاثين سنة، ثم نال به جائزة الملك فيصل للدراسات الإسلامية سنة ١٤٠٣. توفي سنة ١٤٠٤ في حادثة سيارة بعد خروجه من مطار القاهرة رحمه الله تعالى. انظر «ذيل الأعلام»: ٤.

في مقدمة كتابه دراسات في أسلوب القرآن الكريم والذي طبعته مشكورة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فهل نرمي الجميع بالقول بخلق القرآن، اللهم لا، وأكتفي بهذا من الناحية الموضوعية وهي المهمة.

ومن جهات أخرى أبدي ما يلي:

١ ـ مسودة هذا الكتاب تقع في ١٦١صفحة بقلم اليد، وهي خطوط مختلفة، ولا أعرف منه صفحة واحدة بقلمكم حسب المعتاد، إلا أن يكون اختلف خطكم، أو اختلط علي، أم أنه عُهد بكتب سيد قطب ـ رحمه الله ـ لعدد من الطلاب فاستخرج كل طالب ما بدا له تحت إشرافكم، أو بإملائكم. لهذا فلا أتحقق من نسبته إليكم إلا ما كتبته على طُرّته[١] أنه من تأليفكم، وهذا عندي كاف في التوثيق بالنسبة لشخصكم الكريم.

٢ ـ مع اختلاف الخطوط إلا أن الكتاب من أوله إلى آخره يجري على وتيرة واحدة، وهي أنه بنفس متوترة وتهيُّج مستمر، ووثبة تضغط على النص حتى يتولّد منه الأخطاء الكبار، وتجعل محل الاحتمال ومشتبه الكلام محل قطع لا يقبل الجدال، وهذا نكث لمنهج النقد: الحيدة العلمية.

٣ ـ من حيث الصيغة إذا كان قارناً بينه وبين أسلوب سيد رحمه الله، فهو في نزول، سيد قد سَمَا، وإن اعتبرناه من جانبكم الكريم فهو أسلوب (إعدادي) لا يناسب إبرازه من طالب علم حاز على العالِمِية

(١) أي: جانبه، والمراد هنا غلافه.

العالية[١]، لابد من تكافؤ القدرات في الذوق الأدبي، والقدرة على البلاغة والبيان، وحسن العرض، وإلا فليكسر القلم.

٤ ـ لقد طغى أسلوب التهيُّج والفزع على المنهج العلمي النقدي، ولهذا افتقد الرد أدب الحوار.

٥ ـ في الكتاب من أوله إلى آخره تهجُّم وضيق عطن وتشنُّج في العبارات فلماذا هذا؟!

٦ ـ هذا الكتاب ينشط الحزبية الجديدة التي أنشأت في نفوس الشبيبة جنوح الفكر بالتحريم تارة، والنقض تارة وأن هذا بدعة وذاك مبتدع، وهذا ضلال وذاك ضال، ولا بينة كافية للإثبات، وولدت غرور التديُّن والاستعلاء حتى كأنما الواحد عند فعلته هذه يلقي حملاً عن ظهره قد استراح من عناء حمله، وأنه يأخذ بحجز الأمة عن الهاوية، وأنه في اعتبار الآخرين قد حَلَّق في الورع والغيرة على حرمات الشرع المطهر، وهذا من غير تحقيق هو في الحقيقة هدم، وإن اعتبر بناء عالي الشرفات، فهو إلى التساقط، ثم التبرُّد في أدراج الرياح العاتية.

هذه سمات ست تمتع بها هذا الكتاب فآل غيرَ ممتع، هذا ما بدا لي حسب رغبتكم، وأعتذر عن تأخر الجواب، لأنني من قبل ليس لي عناية بقراءة كتب هذا الرجل وإن تداولها الناس، لكن هول ما ذكرتم دفعني إلى قراءات متعددة في عامة كتبه، فوجدت في كتبه خيراً كثيراً وإيماناً مشرقاً وحقَّاً أبلج، وتشريحاً فاضحاً لمخططات العداء للإسلام، على عثرات في سياقاته واسترسال بعبرات ليته لم يَفُهْ بها، وكثير منها ينقضها قوله الحق في مكان آخر، والكمال عزيز، والرجل

(١) أي: الدكتوراه.

كان أديباً نقادة، ثم اتجه إلى خدمة الإسلام من خلال القرآن العظيم والسنة المشرفة، والسيرة النبوية العطرة، فكان ما كان من مواقف في قضايا عصره، وأصرّ على موقفه في سبيل الله تعالى، وكشف عن سالفته[١]، وطلب منه أن يسطّر بقلمه كلمات اعتذار وقال كلمته الإيمانية المشهورة: إن إصبعاً أرفعه للشهادة لن أكتب به كلمة تضارها، أو كلمة نحو ذلك، فالواجب على الجميع الدعاء له بالمغفرة والاستفادة من علمه، وبيان ما تحققنا خطأه فيه، وأن خطأه لا يوجب حرماننا من علمه ولا هجر كتبه، اعتبر رعاك الله حاله بحال أسلاف مضوا أمثال أبي إسماعيل الهَرَويّ[٢]، والجيلاني[٣] كيف دافع عنهما شيخ الإسلام ابن تيمية مع ما لديهما من الطوامّ لأن الأصل في مسلكهما نصرة الإسلام والسنة، وانظر «منازل السائرين» للهرويّ رحمه الله تعالى، تَرَى عجائب لا يمكن قبولها، ومع ذلك فابن القيم رحمه الله يعتذر عنه أشد الاعتذار ولا يجرمه فيها، وذلك في شرحه

---

(١) صفحة العنق.

(٢) شيخ الإسلام، الإمام القدوة، الحافظ الكبير، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهَرَويّ ـ نسبة إلى هراة بأفغانستان ـ شيخ خراسان، من ذرية أبي أيوب الأنصاريّ رضي الله تعالى عنه. ولد سنة ٣٩٦ كان أثرياً قُحَّاً، وكان يدخل عل الأمراء والجبابرة فلا يبالي. وفي كتابه «منازل السائرين» أشياء مطربة وفيه أشياء مشكلة، وكان يحفظ اثني عشر ألف حديث يسردها سرداً، وكان على حظ تام من معرفة العربية والحديث والتواريخ والأنساب، إماماً في التفسير. توفي رحمه الله تعالى سنة ٤٨١. انظر «سير أعلام النبلاء» ١٨/ ٥٠٣ ـ ٥١٨.

(٣) الشيخ الإمام العالم، الزاهد العارف القدوة، محيي الدين، أبو محمد عبد القادر بن عبد الله بن جَنكي دوست الجبليّ الحنبلي. شيخ بغداد، ولد بجيلان سنة ٤٧١، وتوفي ببغداد سنة ٥٦١. كان واعظاً كبيراً، ونُقلت عنه كرامات كثيرة بعضها لا يصح. انظر سيرته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٣٩ وما بعدها.

«مدارج السالكين»، وقد بسطت في كتاب «تصنيف الناس بين الظن واليقين» ما تيسّر لي من قواعد ضابطة في ذلك.

وفي الختام فإني أنصح فضيلة الأخ في الله بالعدول عن طبع هذا الكتاب. . . وأنه لا يجوز نشره ولا طبعه لما فيه من التحامل الشديد والتدريب القوي لشباب الأمة على الوقيعة في العلماء، وتشذيبهم، والحط من أقدارهم والانصراف عن فضائلهم، واسمح لي بارك الله فيك إن كنت قسوت في العبارة، فإنه بسبب ما رأيته من تحاملكم الشديد، وشفقتي عليكم، ورغبتكم الملحة بمعرفة ما لدي نحوه، جرى القلم بما تقدّم، سدّد الله خطا الجميع، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أخوكم بكر أبو زيد[١].

وهذا الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله تعالى ـ يرد على واحد ممن انتقد جماعة التبليغ نقداً شنيعاً، وكان رده جميلاً مناسباً للمقام، إذ قال رحمه الله تعالى رادّاً على طريقة المنتقد:

«ولا أكتمك سرّاً إذا قلتُ إني لم أرتح لها ولم ينشرح لها صدري؛ لأن هذه الطريقة التي سلكت لا تفيد الدعوة شيئاً لأنها تهدم ولا تبني، وتفسد ولا تصلح، وضَرُّها أقرب من نفعها، ولم يعد ضررها إلا على الدعوة وعلى إخوانك في الله من خيرة المشايخ وطلبة العلم الذين نشؤوا على التوحيد والعقيدة الصحيحة علماً وتعليماً ودعوة وإرشاداً، وقد استغلها مَن لا بصيرة له في مناصبتهم العداء وتكفير بعضهم لهم واستباحة بعضهم لدمائهم والعياذ بالله، مع الوشاية بهم واستعداء

(١) لقد سقت الكلام على طوله لنفاسته وندرته، وأنه في الحقيقة لا مزيد عليه، ولا يصلح أن ينقص منه شيء.

المسؤولين عليهم وتهويل أمرهم بالعظائم وإلصاق التهم بهم مما هم برآء منه حتى حصل على الدعوة والدعاة من الضرر ما الله به عليم، أما مَن أقمتم الدنيا وأقعدتموها من أجلهم فينطبق عليكم قول الشاعر:

وناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها
فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوَعِلُ

لكونهم بمنْأى عنكم في بلادهم سائرين في دعوتهم في حماية من دولتهم لاحترامها لهم لأنك ذكرت في كتاباتك لنا أن رئيس الحكومة يحضر اجتماعاتهم ويشجعهم، كما ذكر لنا هذه الأيام بعض أبنائنا المتخرجين من كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية ممن شاركهم في الدعوة سنين طويلة أن مركزهم في رايوند مفتوح أربعة وعشرين ساعة، وجماعات تخرج في سبيل الله وجماعات ترجع، فما دام الأمر هكذا فلن تخضعهم كتاباتك وكتابات أمثالك المشتملة على الفظاظة والغلظة والسب والشتم، بل إن هذه الكتابات ستكون سبباً في نفرتهم من الحق وبُعدهم عنه لقول الله سبحانه لنبيه محمد ﷺ الذي أدَّبه ربه فأحس تأديبه:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾[1].

وقول النبي ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[2].

«وأن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنْزَع من شيء

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق.

(٣) المصدر السابق.

إلا شأنه»[١].

«وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ولا على ما سواه»[٢].

والله سبحانه نهى عن سب الكفار إذا كان يفضي إلى سب الله فكيف بسب المسلمين إذا كان يفضي إلى تنفيرهم من الحق وبُعدهم عنه وعن الداعين إليه، فالواجب أن تسعوا في الإصلاح لا في الفساد، وأن تخالطوهم وتنهوهم على ما قد يقع من بعضهم من الخطأ بالرفق واللين لا بالعنف والقسوة.

أما تشديدك في إنكار البيعة على التوبة فقد اقترحت على قادتهم لما اجتمعت بهم في موسم الحج الماضي بمكة وحصل بيني وبينهم من التفاهم ما نرجو فيه الفائدة أن يكون عهداً بدل بيعة فقبلوا ذلك، ولعلهم تعلّقوا بما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الجزء ٢٨ ص١٢ من الفتاوى من عدم إنكار ذلك.

وكذلك تشديدك النكير عليهم في إبقائهم أحد الدعاة في المسجد للدعاء لهم، ولعل قصدهم الاقتداء بالنبي ﷺ حين بقي في العريش يوم بدر مع الصدِّيق يناشد ربه النصر حتى سقط رداؤه عن منكبيه فردّه الصدِّيق وقال: يا رسول الله! بعضَ مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما يعدك، ولا يوجب هذا العمل هذا التشنيع الفظيع هدانا الله وإياك، وقد تمنيت أنك قبلت نصيحتي المتكررة لك وما أشرت به عليك سابقاً ولاحقاً في كتبي المرفق بعضها مع بعض صور ما صدر منك في

---

(١) المصدر السابق.

الموضوع؛ لأني كتبتها عن بصيرة وتأنٍّ ونظر في العواقب وموازنة بين جلب المصالح ودفع المضار وخبرة تامة بهم لتكرر اجتماعي بهم في مكة والمدينة والرياض، مع ما استفدته من ثقات المشايخ الذين سافروا إليهم وحضروا اجتماعاتهم واطلعوا عليها عن كَثَب وأعجبوا بها، وكنتُ نصحتك بما نصحتَ به. . . لما تهجم عليهم على غير بصيرة كحال أكثر مَن شنَّ عليهم الغارة في هذا الوقت بدافع الجهل والهوى نعوذ بالله من ذلك، وقد قلتَ في رسالتك المذكورة لـ. . . :

«وصلتني رسالة منك حول جماعة التبليغ، ويؤسفني أن ينهج أحد الدعاة إلى الله هذا المنهج السيئ لشرع الله في سب أقرانه في الدعوة إلى الله وشتمهم وتضليلهم واتهامهم بتنفيذ مخططات أعداء الله في الكيد للإسلام والمسلمين، كل ما في الأمر أن جماعة التبليغ نهجت في الدعوة إلى الله منهجاً أخطأت ـ فيما نرى ـ في بعض جوانب منه ونرى من الواجب أن ننبههم على هذا الخطأ، كما نرى من الواجب الاعتراف بما في منهجهم من صواب، وليت أخي يخرج معهم ليتعلم منهم اللين بدل القسوة، والدعاء للمسلمين بدل الدعاء عليهم، والجدل بالتي هي أحسن بدل الجهر بالسوء، وكلنا محتاج لتفقُّد نفسه وتصحيح منهجه والرجوع إلى الله وإلى سنّة رسوله في طاعة الله والدعوة إلى الله».

انتهى كتابك بحروفه، وقد كتبتَه بعد اختلافك معهم في الرأي ولكن الله أنطقك بالحق والحمد لله على ذلك.

وإليك رسالتك المذكورة مع شكرنا لك عليها برَفقه، وربما اغترَّ بكتاباتك القاسية ـ ثقةً بك ـ مَن لم يخالطهم في عمره ولم يخرج معهم

ولم يعرف عنهم شيئاً إلا من كلامك، فيكون عليك وزرك ومثل أوزار مَن انخدع بما كتبت إلى يوم القيامة.

فاتهم الرأي يا بني، واعلم أن الله عند لسان كل قائل وقلبه، وأن الله سيحاسب الإنسان عما يلفظ به أو يعمله، والجأ إلى ربك واضرع إليه أن لا يجعلك سبباً في الصدِّ عن سبيله وأذية المسلمين، وأسأل الله عزّ وجل أن يشرح صدرك لما هو الأحب إليه والأنفع لعباده، وأن يختم لي ولك وللمسلمين بالخاتمة الحسنة إنه جواد كريم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرئيس العام
لإدارات البحوث العلمية
والإفتاء والدعوة والإرشاد[1]

هذا الكلام من الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ قد بلغ الغاية في النفاسة، والمنتهى في النُّبل والكياسة، ولعمر الحق إن عليه نوراً مَن عمي عنه فكأنما عمي عن شمس الظهيرة لكن ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[2].

(١) «قول العلامة ابن باز في جماعة التبليغ بإيجاز»: ٢٦ ـ ٢٩.
(٢) سورة القصص: ٥٦.

الموقف الصحيح من القدوات

١ ــ التعريف والإشادة بهم والاعتناء بتراثهم:

إن من الحقوق التي للقدوات على الأمة أن تُعرفَ الأجيال بهم، وأن يشاد بذكرهم، ويُعنى بتراثهم حصراً ونشراً؛ إذ هؤلاء هم تواريخ الأمة على الحقيقة، ووجهها الناصع، وسجلها المشرِّف، وأياديها البيضاء على العالمين، وهم من أهل الثقافة والحضارة، والعلم والمعرفة، فمتى ما فرطنا في تعريف الناس بهم وإطلاعهم على مآثرهم ونتاجهم فإننا نُعد مفرّطين في حضارتنا وثقافتنا.

لقد ذكرت سابقاً كيفية اعتناء الأمم بقدواتها ـ الذين يزعمونهم قدوات ـ فكيف يصح أن نقصر في قدواتنا وهم الأعظم والأكمل والأشر ف والأعرف بالله والأعلم بأسس الحياة الكريمة الشريفة.

فيا حبذا لو أنشأنا المعاهد والمؤسسات التي يكون من مهمتها تولي هذه المهمة من تاريخنا وحضارتنا وثقافتنا، ويوقف عليها الأوقاف، ويدر عليها الأموال حتى يصبح للأمة سجل كامل لهؤلاء ولوحة شرف تكون عنواناً على الأمة ومعواناً للأجيال على الارتقاء والاعتزاز والفخر.

قال الأستاذ محمد كُرْدعلي رحمه الله تعالى:

«الأمة الإسلامية من أكثر الأمم قصوراً في الإشادة بالمجد العظيم الذي خلّفه لها عظماء رجالها في السياسة والعلم، وما كان ذلك

إلا للجهل الطارئ بعد القرن الخامس وتسلسله في آبائنا قروناً لم نسلم من عقابيله[١] إلى اليوم، أمة خدمها بروحه وجسمه رجال مثل أبي عبيدة عامر بن الجراح، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ومعاوية، ومروان[٢]، وعبد الملك[٣]، وسليمان[٤]، والوليد[٥]، وعمر بن عبد العزيز[٦]، ومسلمة[٧] وعشرات من رجال بني أمية وقوادهم خليق بها أن تردد ذكراهم في كل ممسى ومَصْبح.

وأمة قام فيها ملكان عقمت الأيام أن تلد مثلهما وهما نور الدين[٨]

---

(١) العقابيل: الآثار المضرة.

(٢) مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأمويّ التابعيّ. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٣/ ٤٧٦ وما بعدها.

(٣) عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الأموي الخليفة. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٤/ ٢٤٦ وما بعدها.

(٤) سليمان بن عبد الملك بن مروان القرشي الأموي الخليفة. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٥/ ١١١ وما بعدها.

(٥) الوليد بن عبد الملك بن مروان القرشي الأموي الخليفة. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٤/ ٣٤٧ وما بعدها.

(٦) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي الخليفة الذي ملأ الأرض عدلاً، ويعد خامس الخلفاء الراشدين. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٥/ ٤ وما بعدها.

(٧) مسلمة بن عبد الملك بن مروان، أبو سعيد الأموي الدمشقي، قائد الجيوش. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٥/ ٢٤١ وما بعدها.

(٨) نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، أبو القاسم التركي، السلطان الكبير العادل الزاهد، صاحب المعارك الكبيرة مع الصليبيين، وهو الذي مهّد الطريق لبيت المقدس لخليفته من بعده صلاح الدين رحمهما الله تعالى. عدَّه بعض المؤرخين سادس الخلفاء الراشدين لصفات فيه لم تكن لملك في الإسلام. بعد معاوية رضي الله عنه. توفي رحمه الله تعالى سنة ٥٦٩. انظر ترجمته في المصدر السابق: ٢٠/ ٥٣١ وما بعدها.

وصلاح الدين[١] ولولاهما لقضى الصليبيون على الإسلام، ولحلُّوا محلنا في الحرمين الشريفين، من فروض العين على كل مسلم أن يعلّم أولاده تقديسهما كما يعلّمهم سور الصلاة[٢].

وأمة أنشأت من الخلفاء... وطائفة من الملوك والأمراء ما اشتهروا بغير السعي لسعادتها حَرِيٌّ بأبنائها أن تذكرهم ولا تنساهم على الدهر.

مَثّلنا بهؤلاء الأفراد ويلحق بهم عشرات ليسوا دونهم بغيرتهم على أمتهم، وإذا جئنا ننظر في طبقات علمائنا نظفر بمئات يجب علينا إعظامهم وترديد أفضالهم علينا وعلى العلم في كل شارقة وبارقة، ولم تخلُ أرض حلّ فيها العرب من عالِم وأديب، فتحوا لنا بأيديهم الكريمة مغالق الحضارة، فأصبح أهل الإسلام سادتها وسدنتها في الأرض...»[٣].

٢ ـ عدم قبول ذم كل شخص لهم:

إذ ينبغي التوقف والنظر، والحمل على أحسن المحامل، وأفضل المخارج، وذلك لأن مَن ثبتت ثقته بيقين فإنها لا تزول إلا بيقين، وهذه قاعدة معلومة معروفة، أما المسارعة إلى قبول الذم وترداده فإنه ليس من منهج العقلاء ولا الصالحين.

---

(١) صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر الدُّوينيّ التكريتي الأيوبي السلطان الكبير الذي فتح الله على يده بيت المقدس وطهّر بلاد الشام ـ إلا عكا ـ من الصليبيين. وكان له معهم الوقائع المحمودة. توفي رحمه الله تعالى سنة ٥٨٩. انظر ترجمته في المصدر السابق ٢١/ ٢٧٨ وما بعدها.

(٢) في السياق مبالغة غير مقبولة شرعاً، وفروض الأعيان إنما يحددها الشارع، لكنه أسلوب أديب أراد أن يلفت انتباه أمته بما ذكره، غفر الله له.

(٣) «المذكرات»: ٣/ ٨٧٧ ـ ٨٧٨.

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي[١] ـ رحمه الله تعالى ـ: «من الغلط الفاحش الخطر قبول قول الناس بعضهم ببعض، ثم يبني عليه السامع حبّاً وبغضاً ومدحاً وذمّاً، فكم حصل بهذا الغلط أمور صار عاقبتها الندامة، وكم أشاع الناس عن الناس أموراً لا حقائق لها بالكلية، أوْ لها بعض الحقيقة فنميت بالكذب والزور، وخصوصاً مَن عُرفوا بعدم المبالاة بالنقل، أو عُرف منهم الهوى، فالواجب على العاقل التثبُّت والتحرُّز وعدم التسرُّع، وبهذا يُعرف دين العبد ورزانته وعقله»[٢].

نعم إن على كلام ابن سعدي هنا مِسْحة نور، إذ أنه عرف خطر الكلام بهوى، وأن الناقد المحطم الهادم قد اختلط قصده بنية شيطانية، وأنه يطعن في القدوات الكبار بحجة الجرح والتعديل وبيان الحق لكنه ـ وإن كان بعض ما يقوله حقّاً ـ قد غمس ذلك في «بحر من التجنِّي والتشفِّي والهوى، والمقرر من قواعد الإسلام أن الجرح والتعديل إن خولط بهوى وتَشفٍّ وتجنٍّ فإن صاحبه مأزور غير مأجور وقوله مرفوض غير مقبول. . . »[٣].

وإليك أخي القارئ وثيقة مهمة خاطب فيها الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالى الشيخَ عبد الظاهر أبو السَّمْح[٤] رحمه الله تعالى

(١) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي. ولد سنة ١٣٠٧ بعنيزة من القصيم. وكان من علماء الحنابلة. أنشأ أول مكتبة بالقصيم سنة ١٣٥٨، وله نحو ثلاثين كتاباً، توفي رحمه الله تعالى سنة١٣٧٦. انظر «الأعلام»: ٣/ ٣٤٠.

(٢) «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام»: ٣٦٠ نقلاً عن «الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة»: للسعدي: ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٣) «عجز الثقات»: ٧١.

(٤) عبد الظاهر ـ أو محمد عبد الظاهر ـ بن محمد، نور الدين التلينيّ، أبو السَّمْح، خطيب الحرم المكي وإمامه، ولد رحمه الله تعالى في حدود سنة ١٣٠٠، ونسبته =

منبِّهاً فيها على أهمية الالتزام باحترام القدوات، وعدم السماح لصغار الطلبة بهدمهم وتحطيمهم والاعتداء على موروثهم، وهذه لفتة حميدة من الملك لو التزم بها صغار الطلبة اليوم لكان في ذلك خير كثير، فقد قال رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى جناب المكرم الشيخ عبد الظاهر أبو السمح سلَّمه الله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد وصل إلينا كتابكم الذي بشأن المدرسة، وأحطنا علماً بما ذكرتم به ومن قبل المدرسة وفتحها فهذا أبرك ما يصير، ولكن بارك الله فيك، تعرف حالة الناس اليوم وتخالفهم وتعاطيهم أموراً ليست في الشرع، إنما هي بعضها عن تعنُّت وبعضها عن جهل، والمقصد من ذلك تعرفون أئمة الإسلام، أنهم الأئمة الأربعة، وأن لهم مما بيَّنوه من الأمور الفقهية التي من الكتاب والسنَّة ومذهب السلف الصالح اليد الطولى بذلك، ولا يعترض عليهم[(١)] إلا كل إنسان ما له معرفة بالدين الحقيقي، ولا شك أن المرجع كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وكل أمر يخرج عنه باطل، فإذا وجد الدليل من كتاب الله وسنّة رسوله وما عليه

= التليني إلى بلدته التلين في الشرقية بمصر. كان قد تفقّه في الأزهر، وصار من وعّاظه، وأمَّ بمسجد أبي هاشم برمل الإسكندرية. استقدمه الملك عبد العزيز إلى مكة وولاه الخطابة والإمامة بالحرم المكي الشريف وإدارة دار الحديث من سنة ١٣٤٥إلى سنة ١٣٧٠ التي توفي فيها بمستشفى في القاهرة. له رسائل مطبوعة قليلة وله نظم. انظر «الأعلام»: ٤/ ١١.

(١) أي: اعتراض تعنُّت أو جهل، أو الاعتراض بقصد الهدم والتحطيم لأشخاصهم وما ورَّثوه.

السلف الصالح فهو البرهان والدليل، فإذا ما وجد المرجع من المذاهب الأربعة أولى من الجهل أو الاجتهاد الذي ما تُحمد عقباه، لأنه ثابت عند الأمة ـ ولا يشكك في ذلك إلا ناقص عقل ـ أن الأئمة الأربعة ما خالفوا الكتاب والسنَّة، ولا بيَّنوا ما يخالفهما إلا اللهم أن يكون أحد يشكك في حديث المنقول عن صاحبه ولعدم صحته ويختار غيره[١]، أو أحد ما يطلع على الحديث، ومعلومك قول الرسول أن كل قول روي عنه يوافق ما كان عليه وما أرسل به فهو أحق به، وكل قول مخالف لذلك أنه باطل، والأئمة اجتهدوا فيما يلزم عليهم، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، فإذا كانت المدرسة التي تريدون فتحها أنه يعلم فيها الحديث والفقه وبالأخص فقه الإمام أحمد وعدم الإعابة على أحد من الأئمة فهذا نحن ممنونون فيه، ونوافق عليه، فإن كان تخشى أن يصير اعتراض أو كلام يشوش الأمة كلها فهذا لا فائدة فيه، فأنت يجب عليك أن تتراجع مع الشيخ عبد الله بن حسن[٢] في ذلك، وتنظرون في الأصلح وتقررون قراراً أعتمد عليه، فبهذا نفتح المدرسة ونحن نساعد في كل شيء، نسأل الله أن يوفق

---

(١) في السياق اضطراب لكن المعنى مفهوم.

(٢) الشيخ عبد الله بن حسن بن إبراهيم من أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى، ولد سنة ١٣١٠بالحوطة من نجد، وشرع في طلب العلم على جده وغيره، وارتحل في طلب العلم إلى الرياض، وعُين في مناصب القضاء في مدن مختلفة آخرها بيشة التي استقر بها بقية حياته للتدريس وتعاطي التجارة.
وكان حسن الخلق، طيب القلب، عدلاً في أحكامه. أصيب بمرض في إحدى زياراته للطائف فمات بها سنة ١٣٩٩رحمه الله تعالى. انظر «علماء نجد خلال ثمانية قرون»: ٤/ ٦٤ـ ٦٦.

الجميع لما فيه الخير والسداد في الأقوال والأفعال، هذا ما لزم بيانه، والله يحفظكم والسلام.

في ١ صفر ١٣٥٣هـ. اهـ.

وفي اليوم التالي رفع الشيخ أبو السمح خطاباً آخر للملك عبد العزيز ضمَّنه منهج الدار ونظامها الذي وُضع من قبل الشيخين أبي السمح وعبد الله بن حسن آل الشيخ، رئيس القضاة آنذاك.

وبعد اطلاع جلالته على النظام العام للدار ومنهجها الدراسي صدرت الموافقة السامية برقم ٦٥ وتاريخ ٣ صفر عام ١٣٥٢هـ بافتتاح دار الحديث بمكة المكرمة[١].

٣ ــ الحذر من كلام الأقران بعضهم في بعض في باب الهدم والتشهير:

والأقران هم الجماعة المتماثلون أو المتقاربون سنَّاً وقدراً، وكثيراً ما يحصل بينهم حسد وغَيرة أو تنافس مذموم، فإن تكلم بعضهم في بعض بغير بيِّنة واضحة وبرهان فإن كلامه لا يقبل عند علماء الجرح والتعديل كما هو معلوم.

وقد يُحمل كلام بعضهم في بعض على الحسد والحقد والضغينة لا على بيان الحق والرغبة فيه، وقد قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى: «كلام الأقران إذا تبرهن لنا أنه بهوى وعصبية لا يُلتفت إليه بل يُطوى ولا يُروى. . . ووقع في كتب التواريخ وكتب الجرح والتعديل أمور عجيبة، والعاقل خصم نفسه. . .»[٢].

---

(١) «الكتاب الوثائقي عن الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة»: ٣٦٨ ـ ٣٦٩ صدر بمناسبة الاحتفاء بمرور مئة عام على تأسيس المملكة.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٧٥.

وقال أيضاً: «وقد عُلم أن كثيراً من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدر لا عبرة به لا سيما إذا وثق الرجلَ جماعةٌ يلوح على قولهم الإنصاف»[١].

وقال أيضاً: «وبكل حال كلام الأقران بعضهم في بعض يُحتمل، وطَيُّه أولى من بَثّه إلا أن يتفق المعاصرون على جرح شيخ فيعتمد قولهم، والله أعلم»[٢].

وقال أيضاً: وقد عُرف وَهْن كلام الأقران المتنافسين بعضهم في بعض، نسأل الله السماح[٣].

٤ ـ حمل كلامه على أحسن المحامل:

إذ لو أن كلاماً احتمل الخطأ والصواب والزيغ والاستقامة، فما الداعي لأن يحمل على أسوأ المحامل؟ وقال الإمام السُّبكيّ[٤] رحمه الله تعالى: «فإذا كان الرجل ثقة، مشهوداً له بالإيمان والاستقامة فلا ينبغي أن يُحمل كلامه وألفاظ كتاباته على غير ما تُعوِّد منه ومن أمثاله، بل ينبغي التأويل الصالح، وحسن الظن الواجب به وبأمثاله»[٥].

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٩٥٨.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ١٣٥٠.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٦٧٥.

(٤) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، تاج الدين. ولد سنة ٧٢٧وقرأ على جملة من المشايخ، وأمعن في طلب الحديث والاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر وهو شاب. وكان ذا بلاغة وطلاوة ومعرفة بالأمور. له مصنفات انتشرت في حياته ورزق فيها السعد. ولي عدة وظائف في بلاد الشام وانتهت إليه رياسة القضاء والإفتاء فيها، وحصلت له محن ثبت فيها وصفح عمن أساء إليه. توفي سنة ٧٧١ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٩ ـ ٤١.

(٥) «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام»: ٣٧٤ نقلاً عن «قاعدة في الجرح والتعديل»: ٩٣.

وهذا كلام ذهبي جيد لا مزيد عليه في الاعتذار لبعض هفوات القدوات، ولو أخذ به هدّامو القدوات ومحطموها لنجونا من شر كثير.

٥ ـ تقويم القدوة بجملة ما له من أعمال:

إذ من الخطأ الفاحش أن يُنسى كل ما للقدوة من حسنات وفضائل وأعمال عظام ويؤخذ الذي أخطأ فيه فيُضخَّم ويُقوَّم القدوة به، ثم يُدَّعى أن منهج الموازنة بين الحسنات والسيئات غير لازم، بل هو منهج فاسد لا يعرفه السلف، وعملهم يجري على خلافه، وأنه منهج غريب محدث، هكذا يدَّعي هؤلاء بينما الحقيقة خلاف ذلك؛ إذ أن المؤرخين الثقات جروا على الموازنة الواضحة بين الحسنات والسيئات، وسطَّروا كل ذلك في مصنفاتهم، بل إن منهج الجرح والتعديل كله يقوم على الموازنة، ألا ترى أن صنيع الحافظ ابن حجر في «التقريب»[١] يقوم على الموازنة، فإن أصل «التقريب» المطول: «تهذيب التهذيب» قد يُذكر فيه للرجل الواحد عشرة أقوال أو أقل أو أكثر، وقد يكون في بعضها جرح وفي بعضها الآخر تعديل، فيأتي الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى على تلك الأقوال كلها فيختار منها أو ينشئ قولاً قائماً على الموازنة التامة بين تلك الأقوال، فمن قال إن منهج الموازنة غير صحيح وليس من عمل السلف فقد تكلَّف ما لا يعلمه، وركب ما لا يحسن ركوبه، وخَبَطَ خَبْط عشواء، وانظر إلى هذا الكلام الآتي تعرف حقيقة الأمر، حيث يقول فيه أحد مَن

---

(١) هو كتاب مختصر في حال رجال الكتب الحديثية الستة المشهورة: البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

انبرى لتحطيم القدوات والنيل منهم عن منهج الموازنة وتقويم الرجال والفئات بحسناتهم وسيئاتهم: «إن ذكرها غير لازم ولا واجب، وليس إهمالها مما ينافي الأمانة، بل الواجب واللازم فقط هو بيان ضلالهم وبدعهم وتصرفاتهم وتأويلاتهم وتحذير الناس من خطرها وشرها، وذلك هو غاية النصح المطلوب من علماء الإسلام، وعلى هذا المنهج ساروا، وبه نهضوا، فلهم منا الذكر الجميل وحسن الثناء. . .»[١].

٦ ــ وجوب إجلال مَن جاز القنطرة وتجاوز ما أخطأ فيه:

وأعني بجواز القنطرة أن القدوة قد بلغ مبلغاً من الأعمال الصالحة والآثار الرائعة والعمل المتواصل للإسلام ما حصل به التوثيق له والطمأنينة به، فمَن كان كذلك ينبغي أن يُجَل ويُعَظَّم، وتُدفن بعض السيئات التي بدرت منه، وهذا الحافظ الإمام ابن القيم يوضح هذا أجمل توضيح بقوله: «ومن قواعد الشرع والحكمة ـ أيضاً ـ أن مَن كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل منه ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لا يُعفى عن غيره، فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث بخلاف الماء القليل فإنه لا يحتمل أدنى خبث»[٢].

وجاء في قصة الحديبية: «سار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ[٣]، فألحّت،

---

(١) «منهج أهل السنة والجماعة في نقد الرجال والكتب والطوائف» ص٨٥، نقلاً عن «المفردات»: ٤.

(٢) «العوائق»: ١٣٩، نقلاً عن «مفتاح دار السعادة» لابن القيم: ١/١٧٦.

(٣) كلمة زجر للدابة.

فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وماذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل» الحديث[١].

قال الحافظ ابن حجر في فقه هذا الحديث: «جواز الحكم على الشيء بما عرف من عادته، وإن جاز أن يطرأ غيره، فإذا وقع من شخص هفوة لا يعهد منه مثلها، لا ينسب إليها، ويُرد على مَن نسبه إليها، ومعذرة من نسبه إليها ممن لا يعرف صورة حاله؛ لأن خَلأَ القصواء لولا خارق العادة لكان ما ظنه الصحابة صحيحاً، ولم يعاتبهم النبي ﷺ على ذلك لعذرهم في ظنهم» اهـ.

قال الشيخ بكر أبو زيد معلقاً على هذا الحديث: «فقد أعذر النبي ﷺ غير المكلف من الدواب باستصحاب الأصل، ومن قياس الأولى إذا رأينا عالماً عاملاً، ثم وقعت منه هِنة أو هفوة، فهو أولى بالإعذار، وعدم نسبته إليها والتشنيع عليه بها؛ استصحاباً للأصل، وغَمْر ما بدر منه في بحر علمه وفضله، وإلا كان المعنف قاطعاً للطريق، ردءاً للنفس اللوّامة، وسبباً في حرمان العالم من علمه، وقد نُهينا أن يكون أحدنا عوناً للشيطان على أخيه. فما ألطف هذا الاستدلال وأدق هذا المنزع، ورحم الله الحافظ الكناني ابن حجر العسقلاني، على شفوف نظره، وفقه نفسه، وتعليقه الحكم بمَدْركه»[٢].

٧ ــ عدم اجتماع الناس على إجلال شخص منهم، إنما العبرة بالأكثر:

ينبغي ألا ننسى أبداً أنه لا يمكن أن تقف الأمة من القدوات موقفاً

---

(١) صحيح الإمام البخاري: كتاب الشروط.

(٢) «تصنيف الناس»: ٨٠ ـ ٨١.

واحداً إلا ما ندر؛ فلا نجد قدوة اجتمع الناس عليه كلمة واحدة، لكن العبرة بحال الأكثر الأغلب فمَن أطبق أكثر الناس على الثناء عليه واعتبار حاله فهذا هو القدوة الذي ينبغي أن تُغمس سيئاته وسلبياته في بحر حسناته، وما أحسن قول الإمام ابن بطة[١] ـ رحمه الله تعالى ـ حيث يقول: عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين، والعارفين والمنكرين؛ فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر مَن لاقيت بها موافقاً أو مخالفاً دعاني إلى متابعته على ما يقوله، وتصديق قوله والشهادة له، فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت له ذلك ـ كما يفعله أهل الزمان ـ سماني موافقاً.

وإن وقفت في حرف من قوله أو في شيء من فعله سماني مخالفاً.

وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد سماني خارجيًّاً.

وإن قرأت عليه حديثاً في التوحيد سماني مشبهاً.

وإن كان في الرؤية سماني سالميًّاً[٢].

وإن كان في الإيمان سماني مرجئيًّاً[٣].

---

(١) الإمام القدوة، العابد الفقيه المحدث، شيخ العراق، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العُكْبريّ الحنبلي، ابن بَطّة. ولد سنة ٣٠٤وكان صاحب هيئة حسنة، مستجاب الدعوة، أمَّاراً بالمعروف، لا يبلغه خبر منكر إلا غيَّره، وله أوهام وأغلاط، توفي رحمه الله تعالى سنة ٣٧٨. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٥٢٩ ـ ٥٣٣.

(٢) السالمية: هم أتباع أبي الحسن بن سالم، يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية: «السالمية هم والحنابلة كالشيء الواحد إلا في مواضع مخصوصة تجري مجرى اختلاف الحنابلة فيما بينهم، وفيهم تصوُّف»: «الفتاوى»: ٦/ ٥٦، وانظر «معارج القبول»: ١/ ٣٧٩، أفادني كل ذلك سعادة الدكتور سعيد الغامدي حفظه الله تعالى.

(٣) المرجئة: هم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، =

وإن كان في الأعمال سماني قدريًّا[١].

وإن كان في المعرفة سماني كَرّامياً[٢].

وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر سماني ناصبيًّا[٣].

وإن كان في فضائل أهل البيت سماني رافضيًّا.

وإن سَكَتُّ عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما سماني ظاهريًّا.

وإن أجبت بغيرهما سماني باطنيًّا.

وإن أجبت بتأويل سماني أشعريًّا.

وإن جحدتهما سماني معتزليًّا.

وإن كان في السنن مثل القراءة سماني شافعيًّا.

وإن كان في القنوت سماني حنفيًّا.

وإن كان في القرآن سماني حنبليًّا.

وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخيار ـ إذ ليس في الحكم والحديث محاباة ـ قالوا: طعن في تزكيتهم.

= وللإرجاء معانٍ أخرى انظرها في «الملل والنحل»: ١/ ١٣٩.

(١) القدرية عند إطلاقها فرق منوعة لكن يجمعها القول بأن الناس يخلقون أفعالهم، وأن الله تعالى غير خالق لأكْساب الناس ولا لشيء من أعمال الحيوانات فسمُّوا قدرية لهذا، ولهم أصول يطول شرحها وتفصيلها. انظر ذلك في «الفرق بين الفرق»: ٩٣وما بعدها.

(٢) أصحاب محمد بن كَرّام، كان يثبت الصفات إثباتاً ينتهي بها إلى التجسيم والتشبيه، والكرامية طوائف يبلغ عددها اثنتي عشرة طائفة، انظر مقالاتهم في «الملل والنحل»: ١/ ١٠٨.

(٣) وهم الذين يناصبون آل البيت المطهَّر العداء.

ثم أَعْجَبُ من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون عليّ من أحاديث رسول الله ﷺ ما يشتهون من هذه الأسامي؛ ومهما وافقتُ بعضهم عاداني غيره، وإن داهنتُ جماعتهم أسخطت الله تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من الله شيئاً، وإني مستمسك بالكتاب والسنة، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو، وهو الغفور الرحيم[١].

ويشبه حال ابن بطة حال الإمام الشاطبي الأصوليّ[٢] رحمه الله تعالى حيث يقول: «تردد النظر بين أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس ـ فلا بد من حصول نحوٍ مما حصل لمخالفي العوائد. . . ـ وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح فأدخل تحت ترجمة الضلال عائذاً بالله من ذلك. . . فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة. . .

فتارة نُسبت إلى القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه. . .

وتارة نُسبت إلى الرفض وبغض الصحابة رضي الله عنهم. . .

وتارة أضيف إليّ القول بجواز القيام على الأئمة. . .

وتارة أُحمل على التزام الحرج والتنطُّع في الدين. . .

وتارة نُسبت إلى معاداة أولياء الله تعالى. . .

---

(١) «تصنيف الناس بين الظن واليقين»: ٦٨ـ ٦٩.

(٢) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخميّ الغرناطي، أبو إسحاق الشهير بالشاطبيّ. الإمام العلامة المحقق، القدوة، الحافظ الجليل المجتهد. كان أصوليّاً، مفسراً، فقيهاً، محدثاً، لغويّاً، بيانيّاً، نظّاراً، ثبتاً ورعاً صالحاً زاهداً سُنيّاً، وله تآليف جليلة مشتملة على أبحاث نفيسة وانتقادات وتحقيقات شريفة. توفي رحمه الله تعالى سنة ٧٩٠. انظر «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»: ٤٨ـ ٥٢.

وتارة نُسبت إلى مخالفة السنة والجماعة. . . »[١].

وقد ذهبت تلك الاتهامات كلها أدراج الرياح وبقي الإمام الشاطبي علماً من أعلام أهل السنة والجماعة، ورمزاً من رموز التاريخ الفكري والثقافي الإسلامي، وهكذا الأمر في كل من اختلف في حاله الناس فالعبرة بقول الأكثر الأغلب، أما الإجماع على رجل بعينه فهو يكاد يكون متعذراً، والله أعلم.

وهناك قاعدة لطيفة ذكرها أحد الفضلاء وهي نافعة في هذا الباب حيث قال واصفاً الشيخ إسماعيل الدهلويّ[٢]: «كان نادرة من نوادر الزمان، وبديعة من بدائعه الحسان، مقبلاً على الله بقلبه وقالبه، مشتغلاً بالإفادة والعبادة، مع تواضع وحسن أخلاق وكرم وعفاف وشهامة نفس وصلابة دين، وحسن محاضرة، وقوة عارضة، وفصاحة ورجاحة. . . وقد وقع له مع أهل عصره قلاقل وزلازل، وصار أمره أحدوثة. . . والناس قسمان في شأنه:

فبعضٌ منهم مقصر به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بعظائم.

وبعضٌ آخر يبالغ في وصفه ويتعصّب له كما يتعصّب أهل القسم الأول.

---

(١) «الاعتصام»: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الشيخ العالم الكبير، العلامة المجاهد في سبيل الله تعالى الشهيد إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي، أحد أفراد الدنيا في الذكاء والفطنة وقوة النفس والصلابة في الدين.
ولد بـ «دهلي» سنة ١١٩٣، وقرأ على المشايخ حتى صار بحراً زاخراً في المعقول والمنقول، وله عدة مصنفات نافعة. جاهد في سبيل الله تعالى في عدة مواقع حتى استشهد في بالاكوت من أرض باغستان ـ تقع الآن في باكستان ـ سنة ١٢٤٦ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «الإعلام بمَن في تاريخ الهند من الأعلام»: ٧/ ٥٨ ـ ٦٣.

هذه قاعدة مطردة في كل من يفوق أهل عصره في أمر»[١].

نعم إن القاعدة التي ذكرها هي قاعدة معقولة صحيحة مطردة رأيناها مراراً، والله أعلم.

٨ ـــ نقد الخطأ دون الحَطِّ والهدم:

وينبغي لمَن تصدّى لتقويم الناس وإقامتهم على الحق ووزن أعمالهم بميزان الشرع المطهر ـ ويا لعظم ما تصدّى له[٢] ـ أن يعتني كل الاعتناء بإحقاق الحق وبيانه ونصرته دون العناية بالحط على الناس، والتشهير بهم، والتشفِّي منهم، وإنقاص أقدارهم، ومحاولة صرف وجوه الناس عنهم، ولمزهم هم ومن وراءهم ممن اتبعهم وارتضاهم قدوة يقتدي بها ويدين الله تعالى بحبها وتوقيرها، وذلك لأن مَن صنع هذا وتوغّل فيه رغب الناس عن منهجه وكرهوه، والأخطر من ذلك أنه قد تأخذهم العزة بالإثم فلا يقبلون ما قاله هذا الناقد الغالي الهادم من بعض الحق، فيردون كلامه جملة وتفصيلاً، وفي هذا ما فيه من ضياع للحق وخفائه، وقد يُلمز الناقد الغالي الهادم في إخلاصه بسبب إصراره على نقده الهادم المحطم؛ وذلك لأنه لو أراد وجه الله حقاً فيما قال[٣] لاجتهد في قصر كلامه على نقد المسائل التي يراها مخالفة دون الحطِّ على المنقود والتشهير به تشهيراً يفصح بمكنون صدره نحوه، ويكون أشبهَ بنَفْثَة المَصْدور، وصَوْلة المغرور.

---

(١) «المختار المصون»: ٣/ ١٦٩٨.

(٢) وذلك نحو المؤرخين والمفتين والقضاة ونحوهم.

(٣) لأنه يدعي هذا ببعض العبارات التي يوردها يؤكد بها مقاله مثل الحلف، وقوله: يعلم الله، ويشهد الله إلى آخر هذه العبارات التي لا تغني عنه شيئاً في الحقيقة أمام سيل نقده المحطِّم الهادم الجارف.

قال الأستاذ محمد عوامة: «إن على المختلفين أن يقصدوا في كتاباتهم إحقاقَ الحق وتبيينه ونصرته، فإذا تكلموا أو كتبوا كان الحق رائدهم دون تشهير بفلان وفلان، وسخرية بآخر ومدرسته، فالعالم الصادق لا يقصد الحطَّ من شخص إنما يقصد هدم فكرة باطلة أو مبدأ منحرف عن جادة الإسلام. ومن الملاحظ في كثير من الردود الصادرة حديثاً أن الحامل لكاتبها انتماؤه إلى مدرسة تخالف المدرسة التي ينتمي إليها المردود عليه، بل إن بعضهم إذا أراد أن يصحح خطأً مطبعياً لذاك الآخر نبّه إلى تصحيحه بألفاظ نابية تَنِمُّ عن عدائه له، فأين الإخلاص في القول والعمل؟»[١].

وما أجملَ أن يورد الناقد نقده مصاحَباً بالثناء على المنقود، وإظهار حسناته، وحسن بلائه، وجميل صنعه، وعظيم ما قدم للإسلام والمسلمين، وفي سلفنا الصالح قدوة في هذا الباب، ومن أحسن من صنع هذا الإمام الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ ومن نظر إلى صنيعه في كتبه وترجمته للأعلام عرف هذا، فقد أحسن الثناء على من يوافقهم أو يخالفهم، وأتى بحسناتهم وجميل صنعهم على أحسن وجه، حتى إنه ترجم لمن يُعد من جملة المنحرفين فلم يغفل عن ذكر حسناتهم مع بيان ما أتوه من بدع أو سيئات.

٩ ـــ عدم قصر القدوات على زمان معين أو أشخاص معينين:

وهذه قضية مهمة؛ إذ يَعْمد بعض الناس إلى ألوان من التخصيص في حق القدوات زماناً ومكاناً وأسماء، فمن ذلك:

---

(١) «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين»: ١٨١.

١ ـ يذهب بعض الناس إلى أن القدوات هم مَن كان في زمان السلف الصالح أهل القرون الثلاثة المفضلة، فإذا أضاف إليهم أحداً فإنه يقفز قفزة عظيمة إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم رحمهما الله تعالى، ثم إنه يقفز قفزة أعظم حتى يأتي إلى شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب(١) ـ رحمه الله تعالى ـ ثم يعمد إلى الزمان الحاضر فيختار أشخاصاً يقصر الاقتداء بهم وعليهم.

٢ ـ وآخر يقصر الاقتداء على أشخاص منسوبين إلى بلاد بعينها فلا يقبل غيرهم كائناً مَن كانوا، ويظل متوجساً خائفاً من كل مَن يخالف مشربه ومنهجه الذي ألفه وارتضاه واقتدى به.

٣ ـ وثالث يتوسع فإذا عد القدوات اختار واحداً من الهند وثانياً من المغرب وقليلاً من بلاد المشرق العربيّ ثم أعرض عن غيرهم تماماً فلا يقبل بهم ولا يراهم أهلاً للاقتداء.

٤ ـ ورابع إذا علم أن فلاناً وفلاناً من بلدٍ معين أو مؤسسة أو جماعة معينة ضرب صفحاً عنهم، واشمأز قلبه منهم، وصار منهم على حذر وتوجس خيفة، فقطب جبينه، وعبس وجهه، وأعرض وتولى كأن

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميميّ النجديّ، زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب: ولد سنة ١١١٥هـ العُيَيْنة من نجد، ورحل مرتين إلى الحجاز فمكث في المدينة مدة قرأ بها على أعلامها. وزار الشام ودخل البصرة. جرت له حوادث كثيرة حتى قصد الدرعية سنة ١١٥٧هـ فتلقاه أميرها محمد بن سعود بالإكرام وقبل دعوته وآزره وقاتل هو وأبناؤه من خالفه، واتسع نطاق ملكهم. وكانت دعوته قد انتقلت فكرياً إلى أجزاء من العالم الإسلامي. وأحفاده اليوم يعرفون بآل الشيخ. له عدة مصنفات. توفي رحمه الله تعالى ـ سنة ١٢٠٦. وانظر «الأعلام» ٦/ ٢٥٧.

قد مسته أفعى، وهذا شيء عجيب؛ إذ له أن يقبل بمَن شاء قدوة له أو لا يقبل، لكن أين الأخوة الإسلامية، والرابطة الإيمانية، والعهد الإسلاميّ، وحقوق الأخوة مِن بسط الكف ولين الجانب وسلامة الصدر وبشاشة الوجه وحسن الظن وغير ذلك من الواجبات الأخوية التي أوجبتها الشريعة الإسلامية قبل أن يفرضها الذوق الصحيح والآداب الاجتماعية؟!

العناية بالقدوات الأحياء

كان كل ما مضى في هذه الرسالة ـ تقريباً ـ خاصاً بمَن رحل عن عالمنا من القدوات، الذين نرجو لهم أنهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر ـ نحسبهم كذلك والله حسيبهم ـ لكن الله تبارك وتعالى منَّ على الأمة الإسلامية في هذا الزمان بجملة من الرجال والنساء الذين ما زالوا أحياء يُرزقون هم الضياء في الظلام الحالك، والأمل في ظلمات اليأس والإحباط، سيرهم عطرة، وأحوالهم الشريفة، وآمالهم عزيزة، وطموحاتهم ليس لها حد تنتهي إليه، كل همهم رفعة هذا الدين، وغاية أملهم تحقيق كل ما يرضي الله تعالى رب العالمين، قصروا أنفسهم على هذا وارتضوه، وتحمّلوا في سبيله كل المعوقات والمثبطات فتجاوزوها وخلفوها وراءهم، وهم سعداء منشرحون، راضون مغتبطون. فمَن كان كذلك ينبغي أن يُعنى به العناية الكاملة، ولعمر الحق لو كان أولئك في أمة غير هذه الأمة لطار ذكرهم وانتشر عملهم، ولَمُجِّدوا تمجيداً عظيماً.

هذا وإنه مما ينبغي على الأمة أن تُعنى بهؤلاء وتكرمهم أحياء على الوجه المقترَح الآتي:

١ ـ تعريف الأجيال المعاصرة بهم عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، وإجراء مقابلات معهم كلما أمكن ذلك، ليطلع الناس على أفكارهم، وليستجيبوا لما ينادونهم إليه من مجد ورفعة.

٢ ـ فسح الطريق أمامهم لإلقاء ما يريدون إلقاءه على المجتمع؛ إذ أن كلامهم مؤثر، والنظر إليهم مفيد، وحلولهم نابعة من نفس صافية شفافة.

٣ ـ العناية بنشر ما لهم من نتاج مقروء أو مسموع أو مرئيّ، وبيان فائدته وعظيم أهميته، وتشجيع الشباب على الإقبال عليه، وترجمته إلى اللغات الأخرى ليعرف العالم عنا ما يجهله منا كل الجهل، وليدرك أن للإسلام رجالاً قدوات عظاماً.

٤ ـ تكريمهم وهم أحياء؛ إذ ما الفائدة العائدة على الأموات حتى يكرموا ويعطى أهاليهم الدروع والمكافآت؟! فينبغي أن يرسخ في قيم المجتمع تكريم القدوات وهم أحياء؛ فإن هذا أَدْعى إلى لفت الأنظار إليهم والعناية بشأنهم ونتاجهم، وتعلق الأجيال بهم.

هذا وإن مؤسسة الملك فيصل الخيرية قد نهجت نهجاً حميداً في تكريم العاملين للإسلام ورفع شأنهم والتنويه بنتاجهم، لكن أمر القدوات أوسع من هذا؛ إذ ينبغي أن تكون لدينا مؤسسات عدة لتكريم أنواع منوعة من القدوات في شتى مناحي العمل الإسلامي والثقافي والفكري؛ لذا أتمنى أن تحذو مؤسسات علمية وأدبية حذو مؤسسة الملك فيصل وتقتفي أثرها[1].

---

(١) هناك مؤسسات فعلت هذا لكنها تكتفي بتكريم شخص واحد سنويّاً، وعملها في الغالب ليس له انتشار واسع، ولا إعلام ذائع.

خاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين: محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد: فإن الذي دعاني لكتابة هذا البحث هو التحسُّر على واقع المسلمين والحزن على اختلافهم الشديد في حال قدواتهم، وقيام بعضهم عن عمد وسبق إصرار بتحطيم أولئك القدوات وهدمها، فرأيت أن عمله مصادم للنصوص الشرعية، ومخالف لهدي أئمة السلف وطريقتهم السويّة، ولا أزعم أني جئت بشيء جديد كل الجدة لكن قد أكون لفتُّ الأنظار لقضية هي من أهم القضايا وأشدها فتكاً وتأثيراً سلبيّاً في الأمة.

وإنه لن يكون لهذا الكتاب وأمثاله أثر مهم في الناس إلا إن تبنَّى ما فيه عقلاء الأمة، وغدوا به وراحوا ينشرونه ويضيفون عليه المزيد من الانتصار لأولئك القدوات الكبار.

وهنالك اقتراح أرجو أن يرى طريقه إلى النور وهو أن يكون هناك مجمع من العقلاء والصالحين والعلماء والمشايخ يكون من مهمته حماية القدوات من التحطيم والهدم، ومعاقبة مَن يصنع ذلك بل منع الكلام فيهم وقطع دابر ذلك تماماً، فإن صنعنا ذلك فأرجو أن تستقيم طريقتنا، وأن نجل قدواتنا، وأن نضعهم الموضع اللائق بهم، وهذا الاقتراح جارٍ على سنن العالم اليوم في إجلال قدواتهم ومنع كل مَن هبّ ودب من النيل منهم والغض من شأنهم، والله أعلم.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١ ـ «**الاعتصام**» الشاطبي = إبراهيم بن موسى اللخميّ (ت ٧٩٠). نشر دار عمر بن الخطاب.

٢ ـ «**الإصابة في تمييز الصحابة**»: ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢). نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

٣ ـ «**الأعلام**»: خير الدين الزركلي. نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٨٠.

٤ ـ «**الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام**»: محمد بن أحمد المقدم. نشر دار طيبة ومكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٩.

٥ ـ «**براءة أهل السنة من الوقيعة في علماء الأمة**» بكر بن عبد الله أبو زيد. نشر دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٤.

٦ ـ «**تصنيف الناس بين الظن واليقين**» بكر بن عبد الله أبو زيد. نشر دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٤.

٧ ـ «**الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير**»: أ. د. ليلى عنان. نشر دار الهلال، القاهرة، سنة ١٩٩٢.

٨ ـ «**الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**» الحافظ ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢)، تحقيق محمد سيد جاد الحق. نشر دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٩ ـ «**رسائل الإمام البنا**». نشر دار الشهاب.

١٠ ـ «**سير أعلام النبلاء**»: الحافظ الذهبي = محمد بن أحمد (ت ٧٤٨). تحقيق مجموعة من الأساتذة، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.

١١ ـ «**السيرة النبوية**»: عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨). تحقيق مجموعة من الأساتذة، نشر مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

١٢ ـ «**علماء نجد خلال ثمانية قرون**» الشيخ عبد الله آل بسام. نشر دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٩.

١٣ ـ «**عون المعبود شرح سنن أبي داود**» أبو الطيب محمد، شمس الحق العظيم آبادي، ضبط عبد الرحمن عثمان. نشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٩٩.

١٤ ـ «**الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم**»: عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩). نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، سنة ١٤٠٢.

١٥ ـ «**القدوة الحسنة وأثرها في الإعلام بالإسلام**» الأستاذ عبد الله بن سعد الضياف، سنة ١٤٠٥.

١٦ ـ «**القدوة الصالحة: أخلاق قرآنية ونماذج ربانية**» الأستاذ حسني أدهم جرار. نشر دار الضياء، الأردن، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥.

١٧ ـ «**القدوة في محيط النشء والشباب: دراسة علمية تربوية**»: د. مسعد عويس. نشر دار الفكر العربي، القاهرة سنة ١٩٧٩.

١٨ ـ «**الكتاب الوثائقي عن الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة**». صدر بمناسبة الاحتفاء بمرور مئة عام على تأسيس المملكة. رئيس لجنة إعداد الكتاب د. أحمد الفارس، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٩.

١٩ ـ «**لكي تعود خير أمة**»: د. السيد رزق الطويل. نشر المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة.

٢٠ ـ «**المجهر: هذا بيان للناس**»: مخطوط للأستاذ إبراهيم بن حسن الشعبي.

٢١ ـ «**المدخل إلى علم الدعوة**»: الشيخ محمد أبو الفتح البيانوني. نشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٢.

٢٢ ـ «**مفردات السلفية الجديدة**» مذكرة خاصة من عمل بعض طلبة العلم.

٢٣ ـ «**مذكرات الدعوة والداعية**»: الإمام حسن البنا. نشر دار الشهاب.

٢٤ ـ «**الملل والنحل**»: الشهرستاني = محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨). تحقيق محمد سيد كيلاني، نشر دار المعرفة، بيروت، سنة ١٤٠٠.

٢٥ ـ «**المنهاج النبوي في دعوة الشباب**»: سليمان بن قاسم العيد. نشر دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٥.

٢٦ ـ «**نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء**»: السير للإمام الذهبي، والتهذيب لواضع هذه الرسالة. نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الثانية سنة ١٤١٥.

٢٧ ـ «**نيل الابتهاج بتطريز الديباج**»: الشيخ أحمد بابا التُّنْبُكتي (ت ١٠٣٦). تحقيق مجموعة من الطلاب، نشر كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨.

٢٨ ـ «**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**»: ابن خلِّكان = أحمد بن محمد (ت ٦٨١). تحقيق د. إحسان عباس، نشر دار الثقافة، بيروت.

٢٩ ـ «**ومضات فكر**» الشيخ محمد الفاضل بن عاشور. نشر الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٢.